رحلة المفتش العثماني على سعاد
في الخليج والجزيرة العربية

تحقيق

د/ سعد ثامر

ها أنا أترك نجد التي قضـــيت بها أهم فترة في عمري، تقترب من العام ونصـــف العام ، ولعل قصـدي من التعبير بأهم فترة هو توضـيح مشـاعر وأحاسـيس العيش في مكان حزين بقدر ما هو جميل، ومهجور بقدر ما هو بعيد، هذا العالم الآخر الذي يعرض سمة غريبة لا تشبه قط ما مّر من حياتي في مكان آخر .

فهذا صـالوني ذو القبو في وسـط السـطح، وغرفة نومي ذات النافذة الواحدة التي يبلغ قطرها أربعون سنتيمترا، وسريري السفاري الجميل للغاية المصنوع بإحكام من أفرع النخيل، وأربعة من الكروت الملونة لمناظر في اســـتانبول كنت قد علقتها بيدي على الحائط المطلي باللون الأبيض للصـالون، جعلت استانبول أمامي خمسـة عشـر شـهرا، وسـردابي الذي كان ملاذي الوحيد في الصـيف، وكان مسـرا مظلما للعقارب، وحدائق النخيل التي كانت تمتد أمام عيني، والمنابع غير المعلومة التي تنهمر في صـــــمت، والصحاري التي تصفر أحيانا وتأخذ اللون الوردي أحيانا أخرى تحت السماء الزرقاء .

والزهور المبتسمة الناضجة على رمال صافية رقيقة كالزجاج كأنها تعلن عن ربيع جديد، وغزو القبائل الذي لا ينضـــب، وذلك الجمل الذي تُرك مريضـــا في الصـــحراء، ومدير الناحية المحبوس، والقاضـــــي الجاهل، والموظف الثمل حتى وقت الظهيرة، والمتعهد الذي يبلغ رأســـماله ثمانية آلاف ليرة، بل إنه قضـــــى حياته في ديون غير منتظمة، والصديق الصادق الذي ترك بلدته لأنني سأغادر نجد، والأهالي الذين يأكلون الســـمك المجفف الصـــغير الذي يطلق عليه (متوت) بعد أن يطحنوه في الهاون ثم يضـــعون عليه البصـــل المبشـــور والليمون، ويأكلون معه الأرز المســـلوق إما في مياه ســـادة، أو مع التمر ، والعالم الذي لم يتقاض المعاش، والشـــيخ البدوي الذي يمســـك بالحشـــرات الطفيلية من رأســـه أثناء الحديث، ويلقي بها على الأرض، والعربان الذين يدخنون التبغ الرديء ذو الرائحة الســيئة في القضـــيب المصـــنوع من عظام الخيل أو الأغنام، واليهودي الذي كسـرت آلة تقطيره وقدحه، والجراموفون الموجود في منزل ح . أفندي، والمســـــامرة لســـــماع آلة الكمان ذات الوترين من اليهودي القادم من بغداد،

والمدرسة ذات الستة طلاب هم أبناء بعض الموظفين، والحلاق السينوبي([1]) الخارج من الجندية، والتاجر الذي ينطق (قالكوتا) باللكنة الإنجليزية بالرغم من أنه أمي .

وذلك البدوي الذي يظل 48 ساعة بدون طعام، و24 ساعة بدون ماء يعبر الصحراء ماشيا حتى يصل إلى القصبة، والكثير من الناس الذين لا يعرفون مشروبا في عمرهم سوى القهوة السادة بالزعفران والبهارات، وحقيبة البريد التي ابتلت في القارب الشراعي أثناء مجيئها من البصرة عبر طريق البحرين وأصبحت في حالة لا يمكن قراءة محتويات ما بها ....

كل هذه الأشياء نبذة عن ذكريات نجد .

***

السبت 4 / مارس/ 1327

أودعت أغراضي مع قافلة تحركت قبل يومين ولم أترك معي إلا حقيبتين أو ثلاث وسرير سفاري وصندوق للطعام، وذلك حتى يمكنني التحرك من **الهفوف** . خرجنا في ذلك اليوم من الهفوف في تمام الساعة الثالثة صباحا مع ضابطين ومفرزة مكونة من سبعين فارس يمتطون صهوة البغال وكان معنا قائد نجد عالي الهمة **عباس بك**، سرنا بين حدائق النخيل وبعد ساعتين ونصف وصلنا إلى (**جفر**) التي تعد مركز الناحية . وهناك تناولنا طعام الغذاء، وتحدثنا ، و ودعنا من أتوا لتوديعنا . ثم قصدنا طريقنا برفقة عباس بك – الذي كان سينزل إلى الميناء من أجل قضاء بعض الأعمال– ورئيس البلدية وبعضا من الذين كانوا يريدون الذهاب إلى الساحل . مررنا بأماكن غير مأهولة مثل (**سبعة النقيرات**) و(**العلا**)، وقبل ساعة ونصف من الغروب وصلنا إلى الناحية الأخرى من واد صحراوي منخفض مترب يطلق عليه (**سبخه**)، قمنا بتجفيف خيامنا، وتناولنا طعام العشاء من غير رغبة منا في طقس رطب وبارد قليلا، فكنا نشعل النيران باستمرار في عدة أماكن من معسكرنا، ونعد القهوة .

في تمام الساعة الثالثة دخلنا خيمتنا، وبعد فترة استيقظت من نومي على صوت ضوضاء بالخارج كانت من أجل الإمساك ببغل جامح حل عنانه، وأخذ يركض هنا

---

[1] – **نسبة إلى مدينة ومحافظة سينوب في تركيا .**

وهناك . استمرت هذه الحادثة المضحكة حوالي نصف ساعة، ولأنني وجدت صعوبة في النوم مرة أخرى ارتديت ملابســـي وخرجت من الخيمة، اقتربت من إحدى النيران الكبيرة التي كانت تشتعل بالقرب مني، وجلست لأشرب القهوة وأتدفأ، كان لون القمر يميل إلى الاصـــفرار، إذ كان على وشـــك آلافول، وشـــاهدت حينئذ بزوغ الفجر في الصـحراء . وقد رسـمت هذه الطبيعة الغنية الجميلة التي تمثل قصـيدة شـعرية غير متناهية لوحة بسيطة ولكنها صادقة ومتناغمة تتشكل من السماء التى لا لون لها وبين تلك الأكوام من الرمال الموحشـة . أما القمر الذي كان ذابلا بقدر ما هو صـامت في الغروب، فقد بدا كبيرا كلما ارتفع في آلافق . وكم كان منظر الشـمس بديعا حيث بدت تلوح في آلافق بأشعتها الرقيقة وكأنها توقظ آلافق.

تحركنا في الثانية عشر صباحا...

كانت هذه هي المرة السادسة التى أمر فيها عبر هذا البحر من الرمال الذي كان خاليا قبيحا بقدر ما هو موحش، كم هى سيئة تلك الصـحراء التي كانت مسرحا شـهد الكثير من حوادث القتل والنهب .

فكم من قافلة نهبت، وكم من أموال ابتلعها البدو في حناجرهم التي تشـبه حناجر آلافاعي في هذا الطريق حتى اليوم، أتذكر أن آخر حادثة وقعت في هذا الطريق كانت في شهر مايو 1325 حينما هجم مئتا لص من أعراب(**بني هاجر**) و(**المناصير**) على قافلة كانت قادمة من الميناء في المنطقة المرتفعة المســماة (**جســرة بُريمان**)، وقد تشـتت القافلة عندما اسـتشـهد البكباشـي **عثمان أفندي** الذي كان مكلفا بقيادة 150 جنديا من الفرسـان لحماية القافلة، واسـتولى الأعراب على 125 بندقية، و90 بغلا من بغال الجند، وتشـتت المفرزة وانتهى الأمر بنهب القافلة عن آخرها . ولأنني ذهبت إلى نجد بعد تلك الحادثة بسـتة أشـهر فإن تأثيرها على الموجودين هناك كان لا يزال باقيا، ولعل سبب انهزام الجند هو جهل عثمان أفندي وتهوره المعطوف على جرأته الزائدة .

صـعدنا إلى قمة (جسرة بريمان) هذه، وبينما كنا ننظر من هناك صـاح شـخص قائلا " القوم يأتون " يقصـــد العدو، وحينئذ ظهر على أوجه أفراد المفرزة اضـــطرابا كبير، ولم نصدق هذا الخبر حيث نظرنا بالمنظار حولنا فلم نجد شيء فسرنا، ولكن الشهيد عالى

الجاه عباس بك تأثر وحزن من هذا الوهم المخيف الذي ســـيطر على أرواح الجند، وغضب لذلك ولكنه لم يقل شيئا .

تابعنا مسـيرنا وكنا نرى البحر على مرمى البصـر من (جسـرة بريمان) التي تعد أعلى نقطة بين لواء نجد والساحل، سرنا ثلاث ساعات، حتى أننا لم نتوقف في منطقة **(بسـيتين)** التي كانت نقطة توقف لكل القوافل، وبينما نحن نسـير إذ بأربعة **(عكيل)** ([2]) يسـرون أمامنا، وقد انسـحب واحد منهم واتجه نحونا وقال لنا " القوم أمامنا، يوجد عربان كثيرون"، وقد تحدثت معه بعدة كلمات فقال إنني رأيتهم .

فقلت لنذهب لتفقد الأمر من مكان قريب، كان عباس بك رجلا جريئا وشجاعا، صعدنا قمة عالية ونظرنا من هناك، في الحقيقة رأينا من أعلى أناس على شـــكل جماعات متفرقة، وكان هذا عبارة عن قافلة كبيرة سـتخرج من الميناء في ذلك اليوم، عاد عباس بك وقد اعتراه خوف كبير، وكان واضـحا عليه أن هذا خوف من ان يحرم من وظيفته، تقابلنا مع تلك القافلة التي كانت تسـير ببطء مترجلة حيث كان بها ما يقرب من ألف ناقة وحمار محملة بمتاع الجند من البصرة .

وصلنا ميناء **العجير** بعد ساعتين، ولأنني قد نمت قليلا في منطقة **(سبخه)** ثم سرت بعدها سبع أو ثمان ساعات على ظهر بغل فقد كنت متعبا جدا .

كانت العجير عبارة عن خان قديم وقلعة صـــغيرة، أما ميناؤها فكان كالأطلال المهجورة، وكان يتم حفر أســس بناء جديد سـيتخذ مقرا لحكومة الناحية، وكان الفناء الواســع الذي يتوســط الخان ممتلئ بأجولة التمر والأرز والبن والحصــير، أما خارج الخان فكانت توجد أجولة الأرز والدقيق الخاصــة بالجند، وشــعير مبعثر على الأرض للبغال، كانت العجير خالية تماما من أي مظاهر للعمران أو التقدم، وقد أتى إثنان من الموظفين بعد سبعة أشهر من إلغاء رسم الاحتساب على الطراز القديم، وأسسوا جمرك هناك، وكانت معاملات الجمرك تتم في الغرفة الواقعة عند باب الخان .

كان الموظفان يقيمان في إحدى غرف الخان المظلمة التي تشبه السجن، ولكنهم كانوا يحصلون في الشهر ما يقرب من ستمائة ليرة، أي أنهما كانا يمتلكان المال ، أما

---

[2] – هم من الجاندرما (المشــاة) المحليين، ويســتخدمون في مهمة الإرشــاد في الطرق، ولا يغيرون ملابسهم، ولا يقومون بوظائف الجنود مثل انتظار نوبة الحراسة وغيرها .

نحن فلم نستطع أن ننقذ أنفسنا من عدم الاكتراث بالمصروفات فأنفقنا حصيلة خمسة عشر يوما، ولم نستطع أن نؤسس إدارة صغيرة للجمرك .

بقينا في العجير يومان، وكان عباس بك ينظر في شـــؤون الأغراض وغيرها، وحتى يلحق بمفرزتي **قطر والقطيف** أخذ ثلاث ضـــباط من الضـــباط القادمين من **البصرة**، وعاد بمفرزته إلى **الهفوف** .

بقى هؤلاء الضـــباط المســـاكين ثلاثة أيام في البحر من أجل العبور بالقوارب الشـراعية لمسـافة 38 ميل ، هى المسـافة بين **البحرين والعجير**، أما الضـابط الآخر وقائد طابور المشـــاة اللذان أتيا قبل هؤلاء فقد بقوا ليلة كاملة في أســـوأ مكان من البحر قريب من السـاحل تحت مطر شـديد عاصـف، ولو كانوا قد انتظروا قليلا هناك لكادوا أن يهلكوا غرقا .

وقد أخذت واحدا من القوارب الشـراعية الصـغيرة التي يطلق عليها " **جلبوت**" وهي أكبر نسبيا من القارب الشراعي المسمى " **بوم**"، وكنت مشغولا بتحميلها، وقد هبت في تلك الليلة عاصـفة اسـتمرت شـديدة لعدة أيام ثم تحولت فجأة إلى رياح خفيفة، بدأت الرياح تخف في حين أنها كانت شديدة وممطرة، وأبرقت السماء وصعقت، وانتهى كل هذا بعد ساعة .

وفى تلك الليلة خرجت من ميناء العجير، وبت في المنطقة المســـماة (**مفرز**) خارج الميناء، وبذلك اكتسـبت ثلاث سـاعات من الوقت، وكنت أعتقد بأن الطقس لو كان مسـاعدا لي وخرجت في الصـباح الباكر أو حتى بعد الفجر لتمكنت من الوصـول إلى **البحرين** بعد الظهيرة.

أعد قاربنا، وتم تحميل كل لوازمنا، إلا أن العاصـفة الشـديدة حالت دون خروجنا، لذا أرجأنا تحركنا إلى عصر اليوم التالي، وخرجنا من الميناء في الوقت المحدد .

حل المسـاء علينا ولا زالت الرياح مخالفة لمسـيرنا، وبقينا في مكاننا حتى الفجر، وفي النهاية توقفت الرياح، ثم أصبحت الرياح تسير في إتجاه الغرب أي في الإتجاه الموافق لمسـيرنا، ولاحت علامات السـرور والفرح على وجوهنا، فالرياح كانت موافقة لنا تماما .

وفي تمام الساعة الواحدة صباحا فردنا الشراع، كنت أجلس في القسم العلوي الموجود في مؤخرة المركب، وكان يجلس معي رئيس بلدية **الهفوف** وأحد الموظفين الذاهبين إلى **القطيف**، أما القسم الأسفل من المكان الذي كنا نجلس فيه فكان به شاب مسكين كان مديرا لأحد نواحي نجد ثم فصل من عمله، وثلاثة من أطفاله .

وبعد تحركنا بقليل نُحرت شاة كما هو معتاد، فقد كان يوجد بالمركب موقد وحطب، وبعض متعلقات المطبخ، طُهى الطعام، وشوينا الكباب، وأكلنا معه الأرز والتمر، وشربنا القهوة ثلاث مرات، وكان قبطان المركب يؤذن للصلاة حينما يحين موعدها، وكنا نصلي في جماعة من سبعة أشخاص، ولأن هذا اليوم كان يوم الجمعة قام القبطان الشاب بإخراج مصحف من صندوقه وتلا القرآن الكريم، كما كان يوجد بصندوقه سجل اليومية والحسابات وسير الرحلة، وكان معظم من في المركب من القطريين .

كان مركبنا يستوعب حمولة 16 طن، ومن بعد الظهر وحتى الساعة الثامنة سرنا مع اتجاه الريح الغربية، وبدت لنا الأجزاء الغربية لجزيرة البحرين، فكنا نرى بوضوح قرية (**عكارية**) التي تعد أقرب قرية من ناحيتنا، وخفت حدة الرياح بالتدريج، وبعد فترة قصيرة سكنت الرياح تماما، لذا قمنا بتغير الشراع عدة مرات وسرنا مسافة قصيرة ونحن نتمايل بالمركب يمينا ويسارا، لذا كان يجب علينا النزول إلى عكارية، خرجنا إلى البر بواسطة الفلوكة الصغيرة التي كانت موجودة بالمركب، واستأجرنا حمارا من الحمّارين الخمسة الذين هرولوا إلينا بمجرد أن رأونا، ودخلنا الجزيرة ومعنا حقيبة أو إثنتين فقط، اتجهنا صوب **المنامة** مركز البحرين، أما المركب التي أتينا بها وتركناها في البحر فكانت ستأتي إلى المنامة في صباح اليوم التالي، وسيتم إخراج لوازمنا منها .

كانت كل الطرق التي نسير فيها عبارة عن حدائق نخيل، وكان الطقس هناك ربيعي عليل به طراوة نادرة، فالمناظر كلها خلابة وكل شئ يبدوا وكأنه جديد، ولعل السبب في ذلك هو تلك العاصفة الشديدة التي هبت البارحة، وجعلت المطر يبدوا وكأنه سيول بل طوفان كاد يغرق المدينة، لأننا عندما دخلنا المنامة وجدنا كل قنوات الطرق قد امتلأت بالمياه، حتى أن المكان المخصص للأمتعة والبضائع الواقع أمام

الجمرك أصابه الضرر من المياه، ورأينا أجولة السكر وقد التصقت ببعضها من المياه، وقد أخبرنا الأهالي بأنهم لم يشاهدوا عاصفة كهذه منذ أربعين سنة، وقد أحدثت السيول شقوقا وحفرا كبيرة للغاية في الأماكن الرملية .

وبالرغم من هذا إلا أنه كان ثمة جمالُ بديع في الأماكن التي سـرنا فيها في **البحرين**، وهو جمال خاص بها، حيث شـاهدنا الورود والزهور الصـفراء والبيضـاء والحمراء قد تفتحت في الأودية الرملية وعلى حواف حدائق النخيل، كانت ألوان تلك الزهور جذابة تدخل البهجة على النفس، وكان منظر القرى الصـغيرة ذات الخمسـة عشر أو العشرين بيتا التي تبدوا من بين حدائق التخيل جميلا للغاية .

والنسـاء هناك ترتدين ملابس فضـفاضـة من الأقمشـة البنفسـجية والسـوداء، ولا يكثرن من الزينة على رؤوسهن، وبالرغم من أن بشرتهن سمراء وذابلة إلا أنهن يتميزن بالحسـن والنظرة الحادة الجذابة، وجمال البدن والعين، وسـيرهن وتحركهن يميل إلى الدلال، وبعد سـاعتين نزلنا بالقرب من قرية (**عالى**)، وبعد صـلاة العصـر اسـترحنا قليلا .

ولم يكن هناك سـوى أطلال مدينة قديمة جدا، ومئات القمم المرتفعة، وأمر عالم من علماء الآثار القديمة الإنجليز بعمل حفريات هناك، حيث تمكن بواسـطة القنصـل من آلافراج عن الأشخاص الذين حبسهم الشيخ **على بن عيسى** شيخ البحرين، واستخدمهم في أعمال الحفر هناك، فهذه الأطلال عمرها أربعة آلاف سـنة، وقد وجُد أن كل الأموات الموجودين في المغـارات التي ظهرت في قمم التلال، قـد دُفنوا وهم واقفين، كانت قبورهم على شـاكلة الغرف الضـيقة الطولية، وبالرغم من أنني بحثت عن العالم الإنجليزي لأعرف منه تفصيلات عن هذا الموضوع، إلا أنني ذهبت دون أن أعرف أي تفصـيلات لأنني لم أسـتطع أن أعرف مكانه بالتحديد لانشـغاله . لقد كانت جزيرة البحرين جزيرة مقدسة عند المصريين القدماء، وربما كانت مقرا لأحد الكهنة .

كان أمامنا مسيرة ساعة ونصف الساعة ، لذا كنا نسيّر دوابنا بسرعة، وقد لفت انتباهي أثناء مسـيرنا واحة واسـعة بها مياه كثير، وقد لفتت هذه الواحة انتباهي لأنني كنت أعلم أن جزيرة البحرين لم يكن بها نبع مائي واسـع بهذه الدرجة، في الحقيقة قالوا إن هذه المياه نابعة من البحر، وانه كان يتم سـقي حدائق النخيل منها؛ حيث كانوا

يمررون المياه حول الأشجار، وبذلك لا تصل المياه إلى جذور النخيل فتفسد التمر، وصادفنا بعد ذلك عدة منابع مائية، ورأينا أيضا المنبع المتجه إلى المنامة، وكافة المنابع المائية الموجودة في البحرين مثل المنابع الموجودة في نجد بها شوائب ومالحة، ويظهر طعمها الكريه وخاصة في القهوة في الشاي .

وصلنا إلى أطراف قصبة المنامة مع غروب الشمس، وكنا سننزل في نزل **القصيبى** أحد أكبر النزل التجارية في **البحرين والهفوف**، أمرنا أحد الحمّارين أن يسبقنا، ووصلنا إلى النزل الذي سنأوي إليه بعد نصف ساعة، أقمنا في البهو الواسع المستقل في الطابق العلوي، وكانت المركب التي أتينا بها ستصل إلى المنامة صباحا لو كان الطقس مناسبا .

حان وقت طعام العشاء، وكما هو معتاد فرشوا حصيرا كبير في وسط البهو، وأحضر اثنان صينية كبيرة يحملونها من الطرفين كانت مملؤة بالأرز وعلى الأرز ضأن مشوي ووضعوها في المنتصف، ثم قاموا بصف أربعين أو خمسين صحن حول الصينية، كان يوجد بها صنوف مختلفة من الطعام؛ البطاطس والكوسة والدجاج والطرشي والمهلبية وحلوى وثريد من الخبز المفتت والبصل المحمر والزبد والطماطم والموز .

وبعد الطعام احتسينا القهوة، وبعدها بساعة شربنا الشاي الممزوج باللبن، ثم قهوة مرة أخرى، ولم يبق حينئذ إلا النوم ...

صباح يوم الجمعة 12 مارس، استيقظت مبكرا، أحضروا إبريق وغسلت وجهي ويدي، ثم أحضروا صحنا به بيض مطهو بشكل يشبه الأومليت وخبز وعسل وزبد، مساء اليوم السابق لم يكن الخبز موجودا على المائدة، بل كان مكانه الأرز والعادة عندهم أن الأرز يمكن أن يؤكل به أي شئ، والخبز أيضا يمكن أن يؤكل به أي شئ، أكلت من الخبز الكثير وحمدت الله أنني رأيت هذه النعمة العظيمة، لأنني عندما عدت من البصرة وأقمت في الهفوف لمدة سبعة أشهر كنت مضطرا لأكل خبز رديء مصنوع من دقيق ملئ بالتراب، خُبز في فرن من الطين، لو تُرك ليوم واحد يصبح مثل البلاستيك، لذا كنت لا أكل منه إلا لقيمات يوميا فقط، أما هذا الخبز اللذيذ الذي أكلته في البحرين ففي رأيي أنه خاص بموائد الكبراء فقط .

كنا ننتظر مركبنا على أحر من الجمر، وكنت بين الحين والآخر أنظر إلى البحر بالمنظار من النوافذ لعلّى أراها، في تلك الأثناء جاء أحد الأشـــخاص وأخبرني بأن السفينة الإنجليزية التي ستقلني إلى **البصرة** وصلت .

وبعد فترة ظهرت مركبنا أيضا، لم تمر ساعة إلا ووجدت خادمي وقبطان المركب ومدير الناحية الذي تحدثت عنه قبل ذلك قد أتوا، وقد رأيت علامات التغير والحزن على وجه مدير الناحية هذا .

سألت عن سبب ذلك فقالوا لي أن أحد أطفاله الثلاثة وهو أصغرهم ـــ في شهره الرابع ـــ قد توفي، وأنهم غسّلوه في المركب، وسوف يدفنوه في البحرين، كان الرجل المســـكين يبكي، وكم كنت أتألم لهذا، ولكني في نفس الوقت كنت أغبط هذا الطفل المسكين الذي ترك دار الشقاء وهو لا يزال صغيرا بدون إحساس .

خرجنا إلى الشـــارع وتجولنا أمام الميناء والجمرك، كان التقدم الموجود بالبحرين يلفت الانتباه؛ ففي أثناء مروري من **البحرين** العام الماضـــي كان هذا الميناء أصـــغر بكثير، ولكنه الآن أكبر في الحجم، ويدخل على البحر بشـــكل أكبر، كما قاموا مجددا بملء الناحية الأخرى منه بالأحجار، وســـمعنا بأنه ســـيتم بناء مخازن كبيرة لحفظ البضـائع التجارية، وقد أشـاروا على الشـيخ على بن عيسـى الحاكم والصـاحب الأوحد للجزيرة ببناء تلك المخازن، لأن واردات الجمرك بأكملها تؤول إلى المشار إليه .

وصلت إلى الميناء سفينة ضخمة حمولتها ألف طن، وقد أحضرت من (**كالكتا**) أربعة عشر ألف جوال، وقد خصصت كل الزوارق الموجودة بالميناء لتفريغ حمولة هذه السفينة، وبالرغم من أن التفريغ كان على قدم وساق إلا أن نصف الحمولة كان لا يزال بالسفينة، ولم يعد هناك مكان خالٍ أمام الميناء والجمرك، وفي الحالات المماثلة لذلك يُكتفى بهذه الحصـــة للبحرين، ويصـــرف الباقي إلى موانى **قطر والعجير والقطيف** بواسطة المراكب الشراعية، لأن كل وسائل النقل الخاصة بنا فقدت بالكامل .

***

وقد التقيت مع شـــخص يدعى ى . ك من تجار وأصـــحاب العقار المســـلمين في البحرين كان يريد رؤيتي والتعرف بي عندما ســـمع أنني وصـــلت إلى **البحرين**، قابلته بالصدفة في أحد الأزقة، فقابلني بحرارة كبيرة وأخذني إلى غرفة الكتابة، وشاهدت على

المنضـــدة مجموعات من مجلة المقتطف والمنار المصـــرية، ألقيت عليهم نظرة عابرة، فقد كان العرب يقرأون مثل تلك المجموعات التي تصـــدر بلغاتهم، وعادة ما تكون تلك الصحف السياسية عند من لهم مكانة اجتماعية .

تجاذبت أطراف الحديث مع الرجل كثيرا، وبالرغم من أنه كان يثني على الحضارة الإنجليزية، إلا أنه كان يؤمـــــن بقوة حضـارة الدولة العثمانية التي تعد من أكبر وأهم الدول في العالم الإسلامي .

عدت إلى البيت الذي أنزل ضـــيفا فيه بعد تلك الزيارة، وبعد أن أمرت بإعداد حقائبي، ذهبت إلى مكتب سـفن (مه يل) ودفعت سـتين روبية وأخذت تذكرة لإحدى قمرات الدرجة الأولى في الســـفينة المتجهة من البحرين إلى البصـــرة، وركبت إحدى الزوارق المسماة (**جولى بوت**) من أمام الميناء، وسرنا مباشرة صوب السفينة الكبيرة الواقفة داخل المياه، وقد تسلم ضابط المركب توصية من مكتب السفن، في تلك الأثناء اقتربت المركب التي حضرنا فيها من العجير إلى البحرين بالسفينة، ونقلت منها أمتعتنا الثقيلة إلى الســـفينة، غادرنا البحرين في ذلك اليوم بعد نصـــف ســـاعة من الغروب، واتجهنا صوب بندر (**بوشير**) .

كان بالسـفينة خبز جيد جدا، لا سـيما وأنني أحب الخبز المحمص (التوسـت) مثل الأطفال، حقيقة كان الطعام في الســـفينة نظيفا للغاية، كنا أربعة أشـــخاص على المائدة يهودي وإنجليزي كانا قادمين من الهند، وأنا ورجل أمريكي هو الوكيل المتجول لأحد أشـهر مصـانع الويسـكي الأمريكية . كانت التربية وحسـن الأخلاق الموجودة لدى الخدم الهنود تلفت الانتباه .

وصـلنا بندر **بوشـير** في اليوم التالي في تمام السـاعة الخامسـة، وحينئذ يجول بخاطر الإنســان فكر غير إرادي وهو؛ أننا بعد عناء يومين قضـيناهم في الطريق من الهفوف إلى البحرين ورأينا فيهم ما رأينا من المخاطر والمحن والمهالك، لم نذق طعم الراحة إلا بعد أن ركبنا هذه الســـفينة (ميل) من البحرين . وهذا الحكم الذي حكمت به والنتيجة التي توصـــلت إليها وأنا في غاية اليأس، إنما تعني أننا محكومون بالجهل والكســـل، وبناء عليه فنحن مضـــطرون لأن نحني رقابنا لكل أنواع الحرمان، وأنا نعيش في اضـــطراب، وانحصـــرت جهودنا وحميتنا فقط في كتابة أو قراءة المقالات الأدبية، ولم

نستطع أن نصل بمشاعرنا وأحاسيسنا إلى درجة أكثر عملية، لأن عقولنا اقتصرت على النظريات فقط، لذا فنحن مضطرون لأن نفهم ونعي الأهمية السياسية للسواحل العثمانية على خليج البصرة بشكل أكثر اختلافا عن الماضي .

وقسم من مثقفي الأمة يظنون، بأنهم يستطيعوا حل كل القضايا على المنضدة الخضراء بكامل اعتمادهم على أنفسهم، لمجرد أنهم تعلموا في استانبول ويعيشون في محيطها بلا تجربة أو خبرة، إن أمة حرة في مناخ مريض مغرور تقتنع بأنها هى الأقدر على تسيير شؤونها، وأنه لا يوجد من هو أفضل منها، ينقصها كل شيء، وتفتقر إلى الهمم الكبرى، وستستمر في أعمالها غير متخلية أصلا عن صفة العقلاء .

لا أعرف كيف أعبر عن هذا ولكن الاهتمام بالأهمية السياسية لخليج البصرة، والارتقاء به الآن كقطعة عثمانية خالصة، لا تتطلب تضحيات كبرى، ولكن الأمر يتطلب أن يحيط كل رؤساء الموظفين هناك بكل العلوم والفنون، إن هذه الأراضي وهذه السواحل وهذا النهر وهذه المحاولات التي نتحمل فيها المشاق ستعمل على إصلاح سياستنا، إن قليل من الانضباط وقليل من التجارة يعد بمثابة أقوى وأضمن أساس يكون مقدمة لانقلاب كبير سيحدث هنا، أما الآن فالتجارة موجودة ولكنها في أيدي وجيوب الآخرين .

كما أن تأثير هذا الوضع على المعنويات، وإدراك الأهالي لتلك الأحكام والظنون على أنها ضعف للحكومة، لا شك قط في أن هذا بمثابة المصيبة السياسية, كما أن هناك شركة بحرية ستقوم بتشغيل الحركة التجارية في السواحل العثمانية بواسطة سفينتين سيبحران بين البصرة **وكالكتا وبومباي**، ونحن نعي ونفهم بشكل جيد أن حسن استعمال وإدارة هذه الحركة التجارية سينقذنا من العديد من المذلات، وسنوضح للجميع أننا بدأنا في المسير صوب طريق الحضارة والمدنية حتى ولو كان ذلك بواسطة تكنة أو تكنتين تبحران في المياه . هذا فضلا عن أنني لا أعرف كيف يمكن التجول في تلك المناطق بدون بريد أو تلغراف، أو سفن، أو أبنية أو نقود .

وصلت السفينة أمام بندر بوشير في المساء وكانت محملة بحمولة ثقيلة، كانت الماركات الألمانية والإنجليزية على البالات والصناديق التي تحتوى على العديد من البضائع المعدنية والأقمشة والزجاج، كان مكتوب على العديد من تلك الصناديق كلمة

(**هامبورج**)، ولكن يا ترى هل سيأتي اليوم الذي يُكتب فيه على الأجولة اسم بغداد أو زور مثلما تكتب كلمة مصر على العديد من الأجولة والصناديق منذ أربعين سنة .

إنها كلها أعمال سهلة، ويمكن أن يتم تأمين هذا في التأكيد على الرعاية التامة لكل الوسائل والأساسات الصناعية والتجارية .

أمسينا أمام بندر **بوشير**، وكانت تهب رياح جنوبية معتدلة، وبعد تناولنا لطعام العشاء انقلبت الرياح إلى عاصفة شديدة، وبدأت أصداء تلك الريح الشديدة تظهر في الأمواج وغيرها، ثم أعقب ذلك هطول للأمطار وبرق ورعد .

استمر هذا الوضع حتى منتصف الليل، وانقلب الساحل رأسا على عقب ، ولكننا لم نشعر بمقدار ذرة من الاضطراب في هذا القصر الحضاري المصنوع من الحديد .

الصباح التالي كان يوافق الرابع عشر من شهر مارس، لم ينته هذا الطقس السيئ إلا بعد الظهيرة، حيث صار الطقس ربيعيا، والبحر هادئا، وبعد الظهر جاء اثنان أو ثلاثة من المراكب الشراعية وأخذوا بعض الأحمال من السفينة، بعدها سرنا حتى المساء في مياه هادئة، وكنت أضيّع الوقت بالتجول في الطابق العلوي الموجود في مؤخرة السفينة، وعندما اقترب مني القبطان سألته عن عمر السفينة فقال خمس وثلاثين، ومع هذا لم يكن واضحا عليها، بالتأكيد تم الحفاظ عليها والاعتناء بها جيدا .

وبعد تناول طعام العشاء، أظهر رفيقنا على السفينة وهو تاجر الخمر الأمريكي أو وكيل إحدى شركات الويسكي الذي تحدثنا عنه سالفا للقبطان ورق اللعب (الكوتشينة) وذلك ليلعب معه البوكر، وقضيا في ذلك ساعة ونصف الساعة، كان هذا المسن الأمريكي يقضي يومه في كتابة الرسائل إلى كل أقطار العالم على ماكينة الكتابة، وقد أصبحت الماكينة لا تُرى من الأوراق الملونة الموجودة عليها والمدون عليها أسماء المواقع والفنادق، هذه الأسماء هى: برلين وفرانكفورت، ونيس ونيويورك، وجاوا ، وجوهانسبرج، وبومباى . أنا أعتقد أنه لا يوجد مكان لم يذهب إليه هذا الرجل .

والقضية كلها عبارة الويسكي، وها هو مر من أمامي ليستمر في الكتابة مجددا .

نمت في هذه الليلة جيدا، واستيقظت في الصباح التالي الساعة الثانية عشر، شربت الشاى، وصعدت لأعلى السفينة، وتوقفت السفينة أمام الفنار القريب من مدخل

شـط العرب، ومكثنا هناك سـاعتين ننتظر المد، في تلك الأثناء جاءت مركبتين بيض اللون من شـط العرب، وبعد أن تحدثنا معهم بالإشـارات تقدمت إحداهما وهي صـغيرة الحجم ورسـت بجانبنا، وكانت بمثابة الأوتومبيل الصـغير الذي يتحرك ذهابا وإيابا بين السـفن الكبرى، تقدمت سـفينتنا ببطء نحو المركب الأخرى التي كانت تنتظر بعيدا، وأنزلت لسفينتنا مجموعة من الصناديق والسلال، كان بها طعام أرسل من بومباى .

دخلنا مدخل شط العرب في تمام الساعة الثالثة والنصف، وبعد ساعة وصلنا أمام (**فاو**) وهناك سـررنا جدا لأننا رأينا مركبنا الجميل المسـمى (**مرمريس**)، تابعنا مسـيرنا في المياه الراكدة لشـط العرب وكنا نشـاهد القرى العامرة الواقعة بين حدائق النخيل على الساحل العثماني .

وبعد ثلاث ساعات وصلنا مدينة المحمرة الإيرانية، فقد كان في السفينة حمولات كثيرة سـيتم تفريغها هناك، ظلت الأوناش تعمل حتى منتصـف الليل، في تلك الأثناء خرج المسـن الأمريكي الذي معنا إلى المحمرة وذلك ليتمكن من آلافلات من الحجر الصحي .

كان سيذهب من هناك إلى البصرة بواسطة القوارب الصغيرة التي يطلق عليها (**بلم**)، ولكن دون المرور على الحجر الصحي .

تحركت سفينتنا في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا، وبعد أن اغتسلت تناولت آلافطار، ثم صـعدت لأعلى السفينة، وكنا قد وصـلنا إلى منطقة **سـبيليات** القريبة من البصرة، وفي تمام الساعة الثانية رست السفينة أمام الحجر الصحي، وبذلك نكون قد خرجنا من **نجد** في اليوم الرابع من شـهر مارس، ووصـلنا **البصـرة** في اليوم السـادس عشر ...

مارس 1327

في أحد أركان العراق

يتم الذهاب من البصرة إلى **القورنة** عن طريق شط العرب بواسطة قارب شراعى صـــغير يســـمى (**اســـتمبوط**)، كانت درجة الحرارة مرتفعة للغاية لدرجة أننا نكاد أن نذوب فيها، حيث كنا في اليوم التاسع من شهر يوليو .

ولكن ما الحيلة فقد اعتادت أبداننا وجلودنا على مثل تلك الأحوال، كما كنا مهيأين لأن نصادف كل شئ في تلك الرحلة، لأننا كنا نقوم بتلك الرحلة وتسيطر علينا مسألة الوظيفة .

ولم يرض الســـيد الوالى ببقائنا أكثر من يومين في البصـــرة من أجل رؤية العيد القومى 10 يوليو، وقال " يجب أن يكون المسافر في الطريق "، كنا ستة أشخاص في القارب، ولأنه قد منع بصورة رسمية الجلوس على حافات القوارب في أشهر الصيف، فقد جلســنا ثلاثة ثلاثة أمام بعضــنا البعض في القارب تحت ظلته، التي كانت تقترب من رؤوســـنا بدرجة كبيرة، فكانت المســـافة بين الظلة ورأس الرجل منا بدون طربوش خمس سنتيمترات، وقد كان هذا كافيا لنا ...

واصـلنا مسـيرنا صـوب **القورنة**، وكانت رايات الاحتفالات بأعياد 10 يوليو تلوح في آلافق، وكانت الأطفال تلهو، أما القسم الزجاجي من واجهة قصر الحكومة وشرفاته فكانت وكأنها تنتظرنا، نزلنا في منزل القائمقام وتناولنا هناك طعام الغذاء، ثم ودعونا إلى الميناء، وركبنا السفينة بعد أن دعا لنا القاضي بلسان فصيح بليغ، تحركت السفينة

في مياه نهر الفرات الراكدة التي كانت تبدوا زرقاء وخضـــراء، وكان توجهنا حينئذ إلى **المنتفق** .

استلقى كل واحد منا في المكان المخصص له على السفينة، فلم نلاقى من سفرنا هذا أى مشقة، وقد وصلنا في تلك الليلة إلى مكان في ناحية (**جبايش**)، وكان يوجد هناك كبار **عشـــيرة بني أســـد**، دعونا بحرارة لشـــرب القهوة معهم، فتركنا الخدم الذين يحرسـون أمتعتنا وسـتة من الجنود الذين كانوا يركبون قاربا صـغيرا مربوطا في إحدى جوانب السفينة، وذهبنا إلى الساحل بواسطة قارب صـغير يسـمى (**مشـحوف**) كان يخصص لنقل الأشخاص من السفن إلى الساحل أي لمسافة عشرة أمتار، وبسطوا لنا حصيرا كبيرا مصنوع من الخوص والغاب .

وبعد أن قضينا نصف ساعة في السلام والحديث وشرب القهوة والشربات، عدنا إلى السفينة، بعد ذلك بقليل سرنا في ضوء قمري خافت، ولأننا قد تناولنا طعام عشائنا قبل أن ننزل للعشيرة بقليل، فلم يبق أمامنا حينئذ سوى النوم .

وفي الصباح وصلنا إلى البركة التي كانت تخفي مجرى نهر الفرات، وكانت عبارة عن بحيرة واسـعة إلى حد ما، ولكن عمقها لا يتجاوز زراعا ونصـف الذراع خاصـة في أشـهر الصـيف، وكانت تنتشـر بها مجموعة من الأحراش المرتفعة من الخوص والغاب مثل الجزر، البعض منها كان يشغل أماكن واسعة شيئا ما .

لم نتمكن من التقدم إلى الأمام أو إلى الخلف بماكينات الســـفينة في تلك المياه مجهولة الممر، لذا توقفنا، أما العشـائر الموجودة في تلك الأراضـي المنسـية فهم عبارة عن رجال مضـرين جهلاء متمردين، اختاروا سـياسـة الطاعة أو التعدى على حسـب حالهم، وبينما نحن متوقفون في هذا المكان لا نسـتطيع التحرك، رأينا خمسـة أو عشـرة أشـخاص يأتون بقواربهم المسماة (**مشـحوف**) وهى القوارب الخاصـة بالإبحار في مثل تلك المياه الضحلة .

لن أنسى قط شكل هذا الأعرابي الذي اقترب من السفينة بقاربه، وكان معه بندقية جميلة، صـعد السـفينة بلا مبالاة وتجول بها، وسـلم علينا بغرور – أو باسـتهزاء – ثم قال لنا هل تذهبون إلى **الناصـرية** ؟ وكان الطبيعي أن نسـكته بقولنا وما شـأنك أنت، من تكون ؟

ولكن عباس بك رئيس الطاقم الذي كان معنا، استدرك الأمر وأراد أن يستخدمه، وقال له نعم ولكن سفينتنا علقت هنا في الطين، إذا ناديت أصدقائك وساعدتنا على التخلص من هذا الوضع سأعطيك ليرة، فوافق الرجل ونادى على بقية القوارب الأخرى، هذا بالإضافة إلى أن الجنود الذين كانوا معنا كانوا قد استعدوا أيضا لمشاركتهم، قام العربان بربط مقدمة السفينة بقواربهم، وأخذوا يجرونها شيئا فشيئا والقبطان يحاول تشغيل الماكينة مع جرهم حتى يتم تشغيلها مرة أخرى، استمر هذا العمل حتى العصر، ونجحوا في النهاية من جرف السفينة خارج هذا الطين، واشتغلت ماكينة السفينة مرة أخرى وأخذ العربان النقود وأظهروا لنا المجرى المائي، ثم ذهبنا، وقد رأينا أشياء غريبة أخرى في طريقنا، على سبيل المثال رأينا أعرابيا عاريا يركب على صندل مستطيل الشكل ومرتفع إلى حد ما، مصنوع من حزمة من الخوص والغاب، ويحركه بواسطة مجداف في يده يضربه في أعماق المياه فيسير الصندل إلى الأمام، كانت تلك الصنادل تجلب إلى الأماكن القريبة من البصرة لتباع هناك، وكانت هذه الحرفة تدر ربحا كبيرا ، حتى أن ملتزم تلك الحرفة كان يعطى 600 ليرة كأعشار سنوية عنها .

صباح الثاني عشر من شهر يوليو، مررنا **بسوق الشيوخ**، ثم تقدمنا صوب **(الناصرية)** التي تعد مركز لواء المنتفق .

كنا نطهو طعامنا على الموقد الكبير الموجود في مقدمة المركب، وصلنا إلى الناصرية بعد الظهر بريح شديدة .

تلفت هذه القصبة الواقعة على نهر الفرات الانتباه بانتظامها، حيث يوجد أمامها مباشرة ميدان فسيح يوجد به معسكر واسع، تحتل الجبهة الأمامية منه دائرة الحكومة، وعلى يمينها الجامع والفرن والمستشفى والحمام، وعلى اليسار بعض ملحقات المعسكر، كما أن شوارعها واسعة ومنتظمة تتقاطع مع بعضها بشكل عمودى، وناحية الناصرية هذه من منشآت مدحت باشا، وبالرغم من كل ما ذكرت إلا أنني كنت أتألم من داخلي على موظفينا الذين لم يستطيعوا الحفاظ عليها .

فقد كانت حوانيت سوق الناصرية عامرة ومفتوحة دائما، ولكن نظرا لتعدى العشائر عليها بشكل دائم ومحاصرتهم لهذا السوق ونهبهم إياه، لم يتبق منه سوى بعض حوانيت الأمتعة، والمقاهي، وحوانيت البقالة، والخضروات . وقد قمنا باستئجار

المنزل الموجود على رأس زاوية الشارع الخلفي للمعسكر لمدة شهر . كان المنزل يبدوا وكأنه غرفة مؤسسة للسكن، وكانت الأمتعة التي معنا من أسِرّة سفاري ومتعلقات المطبخ والمائدة تكفينا، و أقمنا في المنزل، وإحدى الغرف التي كانت موجودة بالطابق العلوى للمعسكر كانت كافية لمهمتنا .

14 يوليو

في الصباح التالي بدأنا العمل، وكانت مهمة هيئتنا– المكونة من خمسة أشخاص مع رئيسها– هى التحقيق في بعض المسائل المهمة المتعلقة بالحكومة والعشائر . اشتغلنا منذ الصباح وحتى الظهيرة، ثم ذهبنا إلى منزلنا وتناولنا طعام الغذاء، ثم جلسنا في الطابق الأرضي من المنزل وذلك حتى نحتمى من حرارة الجو، كنا نتحدث أحيانا، ونستلقى أحيانا أخرى، وقد تمددت وغصت في آلافكار، وقبيل غروب الشمس خرجنا إلى ميدان المعسكر، ونظرا لقلة المياه كنا نذهب إلى سفينتي (**الرصافة**) و(**الفرات**) اللتين كانتا تظلان هنا ولا تستطيعان العودة إلى البصرة . جلست هناك برهة لأجد نسمة هواء رطبة، ولأشاهد غروب الشمس .

وبينما كنت أشاهد الخيول العديدة التي أُخرجت من الحظيرة الواقعة على مقربة مني لتتريض، إذا بي لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في فرسان العرب القدامى، ومناقب الصحراء، والأبطال الذين لهم قصص عن البطولات والعشق .

وبعد تناول طعام العشاء كنا نصعد إلى السطح ونجلس على الاريكة الموجودة بأعلاه، وأحيانا كنا نبقى هناك إلى منتصف الليل، حيث كانت تهب في منتصف الليل نسمات باردة، كانت الطرقات خالية لا يمر بها أحد ، وكنا لا نسمع صوتا سوى أصوات ضجيج الخيول التي كانت راقدة أمام الحظائر في الميدان المواجه لنا .

بعد عدة أيام بدأت الكوليرا في الانتشار، وساد الذعر بين الأجانب الموجودين بين بغداد والبصرة من هذا المرض المهلك، في اليوم التالي بدأت علامات الكوليرا تظهر في المعسكر، وكنا بين خدامنا الذين لا يعرفون شيئا عن التدابير الصحية بالمياه السيئة لنهر الفرات في هذا الموسم، على أي حال بدأت رايات الموت تلوح بيننا، لذا كنا نشرب الليمون الحامض، وماء الرمان والشاي ربما نجد النجاة .

على أي حال كانت معنوياتنا مرتفعة بســـبب عدم الخوف من مثل تلك الأمور، والتعود على المعيشـة في مثل تلك المناطق وما تجلبه من أضـرار، وإيمانا بقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

كما كان العمل في المنزل بعد الظهيرة تحت درجة حرارة 45 وكتابة التقارير وإعدادها يقتضي نسيان كل أنواع الاضطراب .

وذات يوم أخذنا عبّارة الفرات وذهبنا إلى منطقة **(مايعة)** ومنها إلى ناحية (**خضر دراجى**) التابعة لبغداد وذلك بهدف عمل التحقيقات، وكان يمكننا التخابر مع **بغداد والبصـــرة** من تلك المنطقة بالتلغراف، وقد قامت العشـــائر الباغية بقطع كل أســـلاك التلغراف الموجودة بين الناصـرية وبين تلك النواحي، وقاموا بتكسـير أعمدتها الخشـبية وجعلوها دعامات لأسـقف الأبراج التي يتحصـنون بها، فقد كانت تلك الناحية تتشـكل من الرجال المشـــتبه فيهم، والجنود الهاربين، حتى أن مدير تلك الناحية كان يتجول وعلى رأســه الكوفية والعقال، وعلى ظهره الجبة والعباءة، وعندما اعترضــت على عدم ارتدائه الطربوش قال لي " سيدى إنهم يحتقرون هذا – أى الطربوش – " .

وتمثل الذكريات الخوالي لكل واحدة من تلك المراكز العمرانية التي تشرق عليها الشمس مع نهر كهذا وتراب كهذا، قصيدة رثاء بدءا من البابليين وحتى العباسيين ثم السلاجقة.

وذات يوما ، ذهبنا بالعبارة إلى قصـبة سوق الشيوخ الواقعة على مسـافة سـاعتين أو ثلاث سـاعات جنوب الناصـرية، كانت ضـفتي النهر تمتلئان بحدائق النخيل، وكان الطقس في ذلك اليوم حارا للغاية، فقد انتشرت حرارة الشمس على المياه والتراب، كانت تلك الحرارة تتسـلل إلى رؤوسـنا مع الرطوبة العالية، إنني أعجز عن التعبير عن حالة سوق الشيوخ –التي كانت تشتهر بوخامة طقسها– في ذلك اليوم .

وأثناء عودتنا بعد الظهيرة بعد أن أنهينا عملنا، رآنا اثنان من العربان وكنا نجلس في مؤخرة السـفينة في المكان غير المحاط بالألواح الصـلب التي كانت معدة للحماية من العربان العصـــاة، وقد صـــوّب هذان الرجلان بندقياتهم نحونا، وكان هدفهم من ذلك المزاح معنا والضحك على ما اعترانا من خوف من هذا التصرف .

ولكن الأغرب من ذلك بل الأكثر بلية من هذا أنني ذات يوم كنت أمر من تلك النواحي بالزورق الصـغير فوجدت امرأة تبلغ الثمانين من عمرها تغسـل الملابس على

حافة النهر فتحدثت إليها فنهضـــت المرأة وقالت " لقد رأيت مرات عديدة حتى الآن رجال مثلك يرتدون الطرابيش يأتون ويمرون من هنا، ولكني لا أعرف ماذا تفعلون، وما هو عملكم هنا " .

تحركنا من الناصـرية صـباح أحد أيام الخميس من شـهر رمضـان، وكان اتجاهنا صوب (**شطرة المنتفق**)، وبعد ثلاث أو أربع ساعات وعندما بدأت الشمس ترتفع في آلافق وتزيد حرارتها، هبت رياح ســـاخنة للغاية من ناحية الغرب مثيرة للرمال والأتربة الكثيفة جعلت ما بين السماء والأرض أصفر اللون ، وبالرغم من أنني لم أستطع معرفة مقدار الأتربة التي ابتلعتها من جراء تلك الرياح، إلا أنني كنت أشـعر بأنني أتنفس تلك الأتربة في كل نفس ، وقد توقفنا بعد ثمان سـاعات ونصـف من تلك الرحلة لنسـتريح، فقضـــينا وقت الظهيرة في إحدى الغرف الضـــيقة لإحدى القلاع الموجودة هناك والتي كانت مبنية بالطوب الآجر، وتناولنا هناك الطعام، وعندما دخلنا(الشـــطرة) وقت العصر كانت الرياح قد توقفت أيضا .

كانت الكوليرا منتشـــرة في تلك الأماكن أيضـــا، وكانت قناة (**غراف**) القديمة والكبيرة التي تربط الجهة الشـــمالية الشـــرقية بالجهة الجنوبية الغربية بين نهري دجلة والفرات، تحمى المنطقة الواقعة أمام الشـــطرة كلية، وكان أهالي القصـــبة يســـتخدمون المياه التي تخرج من القنوات التي حفروها من عدة أماكن من القناة وكنا مضـــطرين مثلهم للشرب من تلك المياه المختلطة بالشوائب التي يحملها السقاءون في القرب.

وقد كانت المصفاة ذات الطلمبة الموجودة معنا في الرحلة قد انكسرت في هذا المكان، ووصـــلت إلى حالة لا يمكن اســـتخدامها، وبينما كنت أفكر في جلب المياه من أحد الآبار الموجودة في الفناء الواسع للمسجد المواجه لنا، قال لنا أحد الأهالي الموجودين " إن جثث الموتى من جراء الكوليرا تُغسل بجوار البئر، ويلقون مياه الغسل في البئر" .

إذا ، لم يكن أمامنا حيلة سـوى الشـرب من المياه التي يحضـرها السـقا وإفسـاد معدتنا بها من ناحية، وشرب عصير الليمون والرمّان من ناحية أخرى .

وقد رأيتهم يقومون هناك بلف الميت بعد تكفينه بنوع من الحصـير الرقيق بالمقدار الذي يســـمح به لف الرجل العادي، ويربطونه بإحكام من عند الرأس والقدم، وينقلون

الموتى مجموعات بالزوارق او القوارب إلى النجف أو كربلاء ليدفنوا هناك وذلك ليضمنوا لهم جنة عدن .

وقد كان يوجد هناك معسكر جميل إلى حد ما تعرض للتخريب على يد البغاة.

وبعد عدة أيام خرجنا إلى الطريق باستقامة قناة (**غراف**)، مررنا من ناحية قلعة سكر، ووصلنا مركز قضاء (**الحى**)، وتعد هذه النزل الثلاث التي ممرنا بها على قناة غراف من أجود الأراضي على القناة عندما يفيض نهر دجلة، وتصل المراكب الشراعية التي تحمل من 10 إلى 15 طن في القناة المذكورة حتى (**الشطرة**)، بل و إلى منطقة (**شطرة إبراهيم**) التي تصل إلى نهر الفرات، وتحمل أغراض وبضائع لا تنضب ولا تنتهي .

ومن القوة عدم البكاء على هذه الحالة التي آلت إليها البدواة الشـــقية التي تفتخر بكونها ضـــحية لإفســـاد مجموعة من الجهلاء المتمردين المتغلبين، وحينئذ أنقل نص مشاعري التي كتبتها في دفتري هنا :

29 يوليو الجمعة

العمل في هذا اليوم كان قليلا جدا، ولكن الآلام والقســوة كانت كثيرة جدا، فالأيام تمر بلا عمل وبلا أفق، وسط هذه المناظر الموحشة، هذا الجهل الذي تملك كل شئ، وسـط نسـق واحد لا يتغير، يا لها من حياة سـيئة، ويا له من مجتمع غافل مسـكين، فنحن في القرن العشرين وغير منتظمين وغير قادرين، فنحن أكثر من سيُسأل عن الدين والإنسانية، ونحن أكثر المخلوقات اضطرابا .

4 أغسطس الخميس

استيقظت من نومي قبل الشروق هذا الصباح، وركبنا السفينة (الفرات) وسرنا متوجهين صوب (**سايحة**)، وصلناها بعد أربع ساعات، بدأ القيظ، ولم نستطع أن نفرغ من عملنا إلا العصـر، وقبل سـاعة من الغروب كنا أمام (**مايعة**)، وبالرغم من أن هذا العالم الســـاكن الذي يتكون من النهر والوديان فقط يســـتلزم أن يكون جميلا بحاله، إلا أنه على العكس كان أكثر قســـوة . والســـبب عدم وجود العقل، عدم وجود القلب، عدم وجود الحضارة .

أرسلنا تلغرافا إلى بغداد .

24 أغسطس الأربعاء

تحركنا من **شطرة المنتفق** بعد ساعتين من منتصف الليل، كنت مضطربا من الحمى، وقد شعرت بالراحة بعد تناول الأربع حبات من السلوفات التي أرسلها لي طبيب الطابور مساءا .

وعند الظهيرة وصلنا إلى (**كرادى**)، وبعد أن أخذنا قسطا من الراحة، امتطينا صهوات جيادنا، ووصلنا (**قلعة سكرى**) في غضون ثلاث ساعات، وبالرغم من إنني تناولت علاجي بالكامل، إلا أنني شعرت بالمرض جدا في هذا المكان .

وغدا إذا كان لنا نصيبا في المسير، سنصل إلى مركز قضاء (**الحى**) بعد مسير ثمان ساعات ونصف الساعة.

25 أغسطس الخميس

دخلنا قصبة الحى، ولم يبق إلا ساعة على منتصف الليل، المنظر كان جميلا ، كل شئ حسن، ولكن كانت هناك عادة سيئة عند الأهالي وهى أن الأهالي هناك لم يكونوا يفهموا معنى كلمة الإدارة، فيا ترى ماذا تعنى هذه الكلمة بالنسبة لهم ؟ فإذا كانت تعني استمرارية الحال الحاضر، فحينئذ لا حاجة للولاة والتفتيش، أو التحقيق، لأنه لم يكن هناك محكمة، أو قوة ضابطة مكملة كافية، أما إذا كانت كلمة الإدارة تعنى إعلاء الأخلاق العامة التي ستؤثر حتى على المعنويات من خلال انتهاج طريق الرقي والانتظام لهذه المناطق المباركة بتقدم الزراعة والتجارة بآلافكار الاقتصادية والاجتماعية، فإن موظفينا لا يفعلون هذا مطلقا .

ويا ترى هل يكون العلم مربحا لهؤلاء الجهلاء المساكين الذين تربوا على العصيان ؟

2 سبتمبر الجمعة

خرجنا من الحى الساعة الثامنة والنصف مساءا، ووصلنا (**محيرجه**) الساعة الحادية عشر ونصف، وقضينا ليلتنا هناك.

3 سبتمبر السبت

سلكنا طريقنا في الصباح، كانت دابتى في هذا اليوم متعبة للغاية، وصلنا (**كوت العمارة**) الساعة الثالثة .

7 سبتمبر الأربعاء

بعد العشـــاء ركبت الســفينة المســماة (**الخليفة**) القادمة من بغداد، وتحركنا في اليوم التالي في الصباح الباكر .

8 سبتمبر الخميس

مررنا من أمام مركز قضـاء (**على الغربي**) في السـاعة التاسـعة والنصـف، كان قبطان الســفينة قبطان إنجليزي ذو تربية عالية جدا، وفي تلك الليلة دخلت (**العمارة**) وهى آخر نقطة في رحلتي، ولا يســـعني إلا أن أختم كلامي بقراءة الفاتحة على روح صــاحب الهمة والعظمة، الوزير صــاحب الحمية والجناب العالي أكبر رجل إداري في الوطن **مدحت باشا** .

العودة من العراق

غادرت مدينة العمارة العراقية وركبت السفينة صباح يوم العشرين من شهر كانون الأول ســـنة 1327 ، وكان هذا اليوم هو آخر أيامي التي قضـــيتها في جزيرة العرب والعراق وقد بلغت سـنتين وشـهرين، وكانت بداية تحركي لهذه المسـافة التي سـأقطعها إلى بغداد ومنها إلى حلب مرتبطة بصباح هذا اليوم .

وبعد أن مرت علىّ عدة ســـاعات في ســـفينة المجيدية النظيفة المنتظمة التابعة لشركة (**لنج**) بدأت أشعر بحالة من الحزن المجهول الذي بدأ يساورني بشكل تدريجي ولم أعرف سـببه، وقد بدأ تأثير هذا الحزن يتغير تدريجيا أيضـا، في نفس الوقت الذي بدأ فيه لأنني غادرت أماكن أحببتها، ولأنني خرجت في هذه الرحلة الطويلة، كان هذا الإحسـاس يسـري من قلبي إلى فكري ويدعوني للتفكر أكثر من الإحسـاس، وكأنه يريد أن يجعلني مضطربا بتلك الأفكار .

وقد اضـــطررت لترك ذهني في حالة حزينة تجول فيه آلافكار الغريبة المجهولة ، وقلت لنفسي " نعم " إنها العراق العظيمة، ذلك التمثال صاحب الروح المتصف بالحسن والجمال النابع من البركة والنعمة الصـــافية والذي تغذى من ثديي الطبيعة الأم الشـــابة دائما، إنها العراق الغنية الواسعة الجميلة التي تصورتها كجمال مستتر مزين بكل أنواع الذهب واللؤلؤ والألماس للوطن .

إنهـا العراق الجميلـة الحرة الحـارة ، والمتجول الغـامض الكبير، التي احتوتني بالوعود والآمال والانتظار طوال ســـنتين، وأرســـلتني إلى ماض بعيد، وجعلتني أتجول أياما وشـــهورا على ضـــفاف أنهارها وبين مزاراتها، وخدعتني بغروبها المشـــع ولياليها السوداء الساكنة .

وقد تجولت في الجزيرة الواقعة بين مجرى نهري دجلة والفرات اللذين يبتعدان عن بعضـهما أحيانا ويقتربان أحيانا أخرى . وشـاهدت أيضـا كل المنطقة الممتدة صـوب الحدود الإيرانية من شرق دجلة والأماكن المتجهة صوب الصحاري من الساحل الغربي للفرات .

وسرت بطول القناة الكبيرة القديمة المسماة قناة غراف أو **(شطرة الحى)** التي تربط تقاطع نهرى دجلة والفرات من الجهة الشـــمالية الشـــرقية إلى الجهة الجنوبية الغربية، وبمشاعر غريبة شعرت بالحب تجاه حدائق نخيل البصرة العظيمة المظلمة، ففيها يتحد الجسد بالمشاعر والماديات بالمعنويات .

وقد رأيت مئات السفن الشراعية تبحر بشكل مستمر بين النهرين، وهي تنقل في العام الواحد 200 ألف طن من القمح والشعير والأرز عندما تفيض المياه من النهرين، وقد يأست عندما كنت أرى كل ساعة وكل يوم أن هذه الثروة تخرج بأجهل أنواع السعي والعمل، وبتصـــرف لا دراية فيه، وبأفكار وأطوار بدائية، في مكان يخلو من كافة الوسائل التسهيلية .

لقد مررت من قصـــبات تجارية محرومة في الوقت الحالي من خطوط التلغراف التي لم يتم صنعها رغم أنه تم إعطاء إعانة محلية، مررت من بلدان أصبحت بلا مياه وهي بين نهرين، وأدركت أنه لم يتم زراعة أربعة أخماســـها، مررت من تلك المنطقة التي عاشت بين الأنهار التي تجيء وتضيع بلا فائدة وبلا مجرى، من تلك الأراضي التي لا يوجد بها قناة أو سد .

وقد سمعت حكاية حقيقة عن وجود حقول شعير كثيرة جدا أنتجت محصولين في العام الواحد بسبب بعض البذور التي تنثر على الأرض أثناء الحصاد، وتهطل عليها الأمطار فتنموا . وقد تذكرت المنظر الجميل لقطعان الأغنام التي ترعى في أراضـــي تبلغ مئات الآلاف من الدونمات الخالية، وكذا مئات الآلاف من الأبقار والجاموس التي تذهب إلى أماكنها سابحة عبر نهر الفرات وهى عائدة من مراعيها عند الغروب .

ولكن قبل التجول في الأركان المحرومة من المياه العليلة والشـــمس المحرقة التي تنثر بذور أشـــعتها على تلك المنطقة العظيمة، كانت رؤية العديد من الأطفال العراة الذين تجمعوا أمام الأكواخ الحصيرية المنتشرة على طول سواحل الأنهار، وكذا رؤية الرجال والنســـاء الذين كانوا يرتدون الملابس البالية حفاة الأقدام، كافية لأن تترك في الإنسان ذكرى سيئة أخرى .

***

لنعود إلى العراق

إن هذه القطعة هى إقليم الأســاطير الذي ينتهي بخزائن الطبيعة والفيض والعظمة .

حيث تُرى في تلك البوادي هرولة الخيول الجوالة على الدوام، كما ترى الإبل التي تشــد الرحال بلا مياه، وفرار الخنازير البرية من بين الأحراش، والغزلان التي تلعب مع بعضــها البعض . وســأقول أنه لن تؤثر أية قوة بلاغية لمن لم يتجول في تلك المنطقة ويرى بنفســه هذا الدلال الحر غير المشــروط لهذا الإقليم العظيم، والحســن الأســمر الجميـل المحمول بين الإطـار الأزرق الموجود عنـد مصـــــب نهري دجلـة والفرات، والمصفوف به اللؤلؤ، والمنسوج به خيوط الذهب والفضة في القورنة .

توجد هنا الخيول والأنهار والشـــمس المحرقة والمياه التي تهب الحياة والفتيات والشراب والقتل والجوع والفقر والشقاوة، وبقدر ما في تلك البداوة الجاهلية من وقار بقدر ما تستند عليه من صـلابة وبطولة، وبالرغم من أنها تتسلح بالخنجر، إلا أن بها أيضـا طاعة ولين .

كل تلك المناظر تظهر من وقت لوقت، فيمكن أن ترى هنا الرجل المرفه، عالي الجناب عفيف، وفي نفس الوقت تجده لص .

فقد تجد الرجال أحيانا شـجعان فوارس، ولكنهم أيضـا مرتشـون ولعل السـبب في ذلك هو اعتيادهم الســـير في ظل رؤســـاء الموظفين الموجودين هناك، فلو انحرف الموظف ينحرف ظله بالطبع، وإذا استقام استقام ظله معه، ولو أدرك الموظف وظيفته الأساسية لاستقام كل شخص، وإذا لم يدرك ذلك فسيكون كل شئ على النقيض، يا له من واقع حزين .

***

أمـا الموظفون الـذين لم يفهموا جيدا مـدينـة **(العمـارة)** بـالرغم من أنهم أقـاموا بهـا سـنوات عديدة، فليسـت هناك مشـكلة لمن لم يعجبوا بها قائلين إن طقسـها حار للغاية وذات رياح عاتية، وعلى النقيض من ذلك كان يوجد منهم من قضـى أيامه هناك على خير معنى ومقصد وكأنه في حدائق الوطن الغنّاء .

وعندما دخلت مدينة العمارة في شـــهر مارس، لم أتأســـف قط على أنني تركت جمال البصـرة الخاص في هذا الشـهر الربيعي، فقد تعودت منذ أول مسـاء لي هناك على منظر الغروب من شـرفة أحد المنازل المؤسـسـة بين السـواحل المحاطة بأشـجار الصـفصـاف البرية لنهر دجلة وحديقة واسـعة محفوظة عن الأنظار أحيانا حتى عن زرقة السماء تحت خيمة خضراء كبيرة للغاية .

كانت حديقتى مليئة بمجموعات الأشجار التي تعانق بعضها إلى الأبد من أشجار البرتقال والليمون والعنب والبرقوق والتمر، معظمها كان يمضي أيامه في سكون حزين، وصار مأوى للحشرات الباحثة عن الظل .

وقد كانت توجد تكعيبة خشـــبية ممتدة من الحديقة وحتى المنزل الذي أقيم فيه، كانت الأوراق والأغصـــان المتشـــابكة تتدلى منها، كانت تلك التكعيبة تمثل النوافذ الخضـراء المفتوحة التي تجلب النسـيم ، ولن أنسـى قط ذلك البلبل الذي كان بالقفص المعلق بجوار تلك التكعيبة، كان هذا البلبل هو رفيق عزلتي الوحيد، وكانت نغمته بالنسـبة لبلابل اسـتانبول حادة ومحدودة ، وعندما كنت أسـتيقظ قبل شـروق الشـمس، كنت أشـرب الشـاي بجواره، وكنت أضـع بعض الفتات، وورقتين من أوراق الأغصـان المتدلية من بين حلقات التكعيبة في فمه .

ولأن هذا البلبل كان قد تعود على هذا المكان، كان يطير في أرجاء التكعيبة فقط إذا ما تركت له باب القفص مفتوحا ثم يعود مرة أخرى للقفص، وكان هذا يســـتوجب منحه الحرية، فتركت له الباب مفتوح على الدوام، ليكون حرا تماما، وذات يوم وجدته قد عاد ومعه بلبل آخر، وقد قام البلبل بالدخول والخروج إلى القفص مرات عديدة أمام البلبل الذي أتى به، ولكن البلبل الذي أتى معه لم يقلده، وبعد أن تحدثا طويلا، أخذ البلبل – وفي الغالب كانت أنثى – يطير من غصـــن إلى غصـــن ثم تعقبه البلبل صـــديقى ولكنه لم يعد مرة أخرى، ولأنني أعرف أن هذا وضـــع طبيعي بالنســـبة له لم أنتظر مجيئه مرة أخرى، ولو كان قد عاد لكنت تحيرت من ذلك ...

حل الخريف .. ...

كنت أقضي ساعة من المساء في مكان مهمل مغطى بشتلات التين، وأشجار التمر والرمان يتجه صوب حديقة كبيرة تحتل مكانا جميلا على ساحل نهر دجلة خلف المدينة بنصف ساعة .

وقد انتبهت في أحد الأيام إلى أن أشجار الرمان كانت تصفر تدريجيا من قمتها، إن هذه الأشجار الشابة الجميلة القد، الكثيفة الأوراق الصغيرة تُظهر تقدم الخريف بأوراقها الذابلة، ولكن بعد مرور أسبوع رأيت هذه الأشجار وكأنها حوريات من الشرق ارتدت الدانتيل المنسوج من الحرير الأصفر وكأنها أشجار إقليم آخر وعالم آخر يفوق تصوري، فقد اصفرت كل الأوراق بدرجات مختلفة بالقدر الذي لم يكن بها أي أوراق خضراء، فمنها من أخذ لون الذهب القديم، ومنها من أخذ لون الصيرمه ، و منها من أخذ لون العسل، كانت تشكل منظرا من الحرير، كل ورقة منها تحافظ على مكانها .

كانت أشجار الرمان التي يقترب عددها من الألف شجرة تقريبا تجذب العيون إليها وكأنها قصيدة شعرية منظومة، وتأخذ الروح وتسير بها في حدائق إقليم الصين ذى الزهور والأوراق الخضراء، وفي غابات الهند ذات آلافرع البيضاء والثمار الحمراء، والورود السوداء، كانت أوراقها تتساقط إثنتين إثنتين وكأنها تقول شيئا، وحزينة تؤدي وظيفة المروحة للنخيل الذابل المزدان بالطرة الكبيرة، ذو القامة الطويلة، كانت تتساقط .

وقد لامست بعصاي المزينة أحد تلك الأشجار بخفة، فاضطربت، وشعرت بحزن كبير، تألمت وسعدت في نفس الوقت؛ لقد أحببت هذا القد المدلل الذي ربما لن أتمكن من رؤيته في الربيع، وقلت في نفسي، إن هذا القد الحزين بالتأكيد ستعود إليه الحياة من جديد في الربيع، ولكننا نحن إذا ما مر بنا ربيع العمر فلن يعود ثانية .

***

مرت اثنتا عشرة ساعة منذ أن تحركنا من مدينة (**العمارة**)، وجن علينا الليل، وكنت لا أزال مضطربا من خفقان تلك الذكريات المزعجة، كانت سفينتنا تسير في ضوء القمر في مياه فضية غامضة، وقد غاص كل ركاب سطح السفينة في النوم، وقد تأثرت جدا عندما رأيت رجلا يبدوا من منظره أنه مريض ومعه امرأته الحزينة، وثلاثة أطفال صغار كانوا قد انزووا في أحد أركان سطح المركب، يقضون ليلتهم تحت غطاء قديم يقشعرون من البرد، وكنت قد رأيتهم قبل ذلك يقضون النهار وهم منزوون أيضا في أحد أركان المركب، الطفل الأوسط منهم كان ضعيف البنية، عيونه جميلة للغاية كانت بمثابة مسرحا للقدر الذي تتحير فيه البشرية بنظراته الحزينة بين الحب والألم، وكان يلزم على لإنقاذ نفسي من تلك المشاعر الحزينة والأفكار المزعجة البحث بسرعة عن حيلة، وأن ألقي بالآمال لسنوات عديدة، إن الغوص في الخيال الجميل هنا، والتفكر في الأشياء الجميلة القابلة للتنفيذ ، وكانت الحيلة أن أفترض وجود الشئ إلى أن أراه أمامي، وهذا بالنسبة لي كان ممكنا، وكان يجب أن يكون مسرح التخيل في تلك المرة هو أرض العراق.

ولكن كيف كنت سأبدأ الخيال، وإلى أي منطقة في العراق سأسوق خيالي، يا ترى هل حب إكمال أي شئ ناقص سيريح قلبي أكثر ؟

في تلك الأثناء أردت التفكر في نهري دجلة والفرات، هل معنى الحضارة والتقدم أن نقيم السدود أمام النهرين لكي نضبط المياه، وشق الجداول المائية التي تشبه المراوح المفتوحة جهة اليمين واليسار من أعلى تلك السدود إلى الواحات الصناعية، وبعد ذلك تخليت عن هذه الفكرة، وفكرت في عمل تلك السدود في منطقة **القورنة** التي يتحد فيها النهران، وبذلك تكون هناك إمكانية لقطع المياه من أمامهم من أول لحظة يشكلان فيها نهر شط العرب ، ثم بعد ذلك بدأ خيالي يهديني إلى فكرة شق القنوات المتعددة من ضفتي مجرى النهرين الطويلين، ذلك المجرى الذي تسير فيه السفينة أسبوعا كاملا، وبذلك نجحت بصورة واسعة في توزيع هذه المياه الجالبة للحياة والبركة للنهرين الكبيرين إلى الأطراف الأربعة .

والنتيجة أن نهر شط العرب أنقلب إلى ميناء أو خليج طويل مالح بتأثير المد والجزر البحري، وذلك لأنني أغلقت سدود المياه في موسم قليل فقط، فأصبحت المياه

وكأنها لا تتدفق، ولم أنس مد جدول إلى نهرى دجلة والفرات من الغرب والشـــرق حتى لا أترك البصـرة المشـهورة بحدائق نخيلها بدون مياه، وقمت بتمشـيط مجرى نهر الشـط بداية من مضـيق الفاو، وكانت مدينة البصـرة التي تبلغ مسـاحتها سـبعون أو ثمانون ميلا مثل (**أنورس)** أو (**هامبورج)** ميناءا بحريا، وقد أنشأت المنافذ عند رأسي السدود في القورنة وذلك لنقل السفن من النهرين إلى نهر الشط أو إلى الناحية العكسية .

وبينما كنت أقول ذلك في نفســـي إذا بفيض مشـــاعر تمنحني الســـرور من هذا الخيال، لأن تلك الأشياء كانت أشياء علمية للغاية، ولم تكن لدي الخبرة أو الدراية لأن أفكر في تلك الأشياء التي تتطلب أصحاب الاختصاص لعملها لأنهم هم الذين يقررون ما إذا كانت تلك الأشياء ضرورية أم غير ممكنة .

وحينئذ تركت هذا الخيال، وقلت في نفســـي لأفكر في الأحوال الاقتصـــادية والاجتماعية للعراق، فليس فيهما مسائل رياضية مفصلة مثل الهندسة وإنشاء الجسور .

ولكن اعتراني تردد شديد في مسألة بأيهم أبدأ التخيل، هل أبدأ بالأمور الاجتماعية التي يكون في تخيلها لذة وانشـراح كبير، أم أبدأ بتخيل الأمور الاقتصـادية وإصـلاحها، ومجرد اليأس والعجز أمام التخيل سـتكون صـدمة كبيرة، إن عدم المقدرة على النجاح في التخيل أمر محزن ، لكم هو صـعب التخلي عن عادة قديمة، ابتسـمت على حالي، وسلمت قوة خيالي لناحية الاقتصاد .

وكنت أريد أن أصـل بقوتي هذه قبل لحظة أو أخرى إلى آمال تبهج القلوب، كنت لا أستطيع أن أعرف مطلبي في تلك اللحظة، فقد كنت أريد أن أبدأ الزراعة في الحال، ولكن لم يكن ممكنا، لأنني وجدت نفســي أمام سـؤال يعذب فكري في تلك اللحظة، فقد كان فكري يقول لي " في أرض من ستزرع، وأين ؟"

كان هذا السؤال صحيحا جدا، لأن تسع أعشار أراضي الدولة أراضي أميرية، أما أراضـــي الأهالي فهي محدودة وقليلة بدرجة أنه يمكن عدها على الأصـــابع، وإن كانت تلك الأراضـي قليلة في سـنجق **المنتفق**، فهي أراضـي تبلغ خمسـة آلاف دونما استولى عليها المشايخ الغالبون بالغصب ووضعوا أيديهم عليها ...

ولو استثنينا قسما من حدائق نخيل البصرة فإن الباقي سيكون مثل ما قبله، أما سنجق العمارة فكافة الأراضي به مقاطعات باستثناء بعض الأراضي الصغيرة الواقعة بجوار المدينة وحولها ....

وبينما كانت البصرة على هذا الحال بدأ في تطبيق نظام الجريب على الأراضي بها، وذلك بهمة المرحوم أعظم رجال الحرية مدحت باشا، وبينما كان معتادا تحصيل الضرائب من كل السفن الذاهبة والآتية، وكذا من مشايخ العشائر المتغلبة التي تعيش بمفردها بين البصرة وبغداد، قام الوالي المشار إليه بإلغاء كل تلك الضرائب، حتى أنه استولى على نجد من **آل سعود** وكان ذلك بمثابة الفتح الحقيقي لها .

على أي حال ، يوجد عشرون ألف أو خمسون ألف أو مئة ألف من العمالة ،وهم عرايا فقراء الذين يعملون بالأجر عند ملتزمى المقاطعات أو مشايخ العشائر المسلحة، ليس لهم يومية أو شهرية، والخلاصة أنهم طائفة لا يشبهون شيئا قط .

ولأن قسما منهم لا ينتسب لعشيرة ثابتة، فإنهم يتواجدون في شهر مايو ويونيو في الأماكن التي تزرع الشعير، ويتواجدون في الخريف والشتاء في مزارع الأرز .

***

وفي تلك الحالة سنستطيع أن نوزع الأراضي ونوطن الناس، وحينئذ يمكننا ويمكنهم ويمكن للآخرين أن يزرعوا، وليشترى أهالي المدينة الذين يمتلكون الأموال الأراضي، وليزرعوا الأشجار، وليحضروا الماكينات، وليقيموا الحدائق والحقول، ولو تمت المساعدة القليلة للزراع الذين يشكلون أكثرية ستنتظم أموره في غضون ثلاث سنوات ؛ بيته، ومواشيه، وبزوره، ويمكن له أن يراجع التجار الصغار بحرية، وبالتالي لن تبقى الحركة التجارية محصورة بين الملتزمين الذين هم رؤساء للعشائر ومغتصبين للحقوق، أو التجار الكبار للمدن، وبذلك يتعود كل شخص على التفكير وعلى المحاسبة، ووقتها فقط ستولد الحرية في الدولة .

ويطبق حق التملك للبشر الذين هم الأصحاب الحقيقيين للكرة الأرضية، إن حرمان مجموعة من الناس من حقل واحد صغير في أراضي واسعة تكفي لضعفهم في العدد خمسة أو عشرة أو عشرين مرة، لا يمكن تصور سبب قط له سوى أنهم في حالة بدائية جدا، ولن نستطيع أن نعطى تلك الأراضي الصغيرة لهذا الرجل مجانا، بل

ســتُعين لها قيمة معقولة، يكون تأديتها بالتقســيط، حتى لو أضــفنا عليه فوائد ، وهذا أفضـــل من أن نتركه بلا أرض أو وطن إلى الأبد، لأن هذا الإنســـان خلق من أجل الحياة في المكان الذي ولد فيه، وأن يموت في هذا المكان، وأن يبني أربعة جدران وسقف يعيش فيهم هو وأبناؤه يحتمون به، ويزرعون ويحصدون، ويؤدون ما عليهم من حقوق أميرية، ولهم الحق في الملبس، والتســـتر، وتربية الأطفال، خلق من أجل ترك شئ لأولاده، والاعتراف بكيانه ، وأن يشعر بأنه موجود ....

***

لقد وزعت الأراضي، ولكن ماذا كنت أرى في ستار خيالي أيضا....

كنت أرى العراق تغيرت تماما، لقد بدت أذرع من جديد ورأس سليمة لم تتخيل قط أنها ستملك بيتا مصونا من أي هجوم، ستكون مالكة لمكان ثابت أو لحقل طوال مدة عمرها، ولم تكن تحلم بسعادة كهذه، ... بدأت هذه الأيدي في الحفر .

وقد تجد من هو مشهور بوحشيته وحيلته وشقاوته وخيانته ومن هو بلا قلب وبلا مشاعر ويشعر بأنه أنقذ المشايخ والموظفين من معاملة (الثرثريين) ولكنه في نفس الوقت صاحب حمية، مطيع، صاحب منة ، بل تجده حليما وصادقا ، والسبب في ذلك أن صار له أرض وحقل ..

توجد قرية بني بها مكتب ومسجد، وخصصت بها المراعي، وتغيرت بها الحالة الاجتماعية، وبعد إخراج التكاليف الأميرية مما سيتحصل لها من الأرض، آمنت في هذه المرة بأنه سيكون لها مال، وما بعد ذلك سيكون سهل نسبيا، لأن الأسس قد وضُعت، وأدرك كل شخص حينئذ من أين أتى وإلى أين يذهب، وما له وما عليه .

وقد قامت الحكومة في تلك الســـنة بشـــق مجموعة من الجداول المهمة التي كانت تذهب إلى الحقول التي تأتي في الأهمية في الدرجة الثانية، أما الجداول المائية فقد تركت للقرى، والماء في تلك المرة، والشـــمس في تلك المرة، والزراعة في تلك المرة لا تشبهن السابقات قط ، كانت توجد فيهن خاصية وروح ونور مختلفين عما قبلهم، لأنهن يعدن على كل شخص وعلى كل عامل في شتى نواحي حياته.

وحينئذ بدأ أصحاب رؤوس الأموال في المجئ، وكانوا يراجعون مديري النواحي وقائمقام الأقضية والمتصرفين، والولاة في شراء الأراضي .

في الواقع ظلت مجموعة من الأراضي خالية، ولكن لم يستمر هذا طويلا، فبفضل الأمن الذي حققته الحكومة على شكل توطين العشائر، قام بعض أصحاب رؤوس الأموال الذين اشتروا الأراضي بجمع ما يكفي تلك الأراضي من العمالة، وجهزوا لها القوة اللازمة من الماكينات، وبينما كان يلزم لحرث خمسين دونما في اليوم الواحد مقدار خمسين زوجا من الأبقار، وخمسين فلاحا، وعشرة لسوق الدواب، وثلاثة أو أربعة من رؤساء العمل، أصبح من الممكن حرث هذه الخمسين بل ضعفها من المساحة في اليوم الواحد بواسطة ماكينة يقوم سبعة أو ثمانية أشخاص فقط بالعمل عليها، فقد أصبحت الماكينات تبزر البزور ، وتسقي الأرض .

وتنفع الماكينات في زراعة الحقول الكبيرة ، حتى أن البعض حاول استخدامها في زراعة القطن وحصلوا بذلك على نتائج طيبة .

ونتيجة التجارب الدقيقة الجدية التي أجريت السنة الماضية، أدركوا أن زراعة قصب السكر أيضا ستكون طيبة للغاية، لذا كان هناك ترغيب من الحكومة في زراعة أربعين أو خمسين ألف دونم من قصب السكر من ناحية ، وتأسيس مصنع للسكر من ناحية أخرى، وبعد ذلك تلغى مسألة أخذ الخمس أو العشر من المحاصيل، وتطرح ضريبة على الأراضي الأصلية فقط، وهذا الطراز الذي سيكون معلوم لدى كل الزراع ولن يتغير مقداره قط سواء كان المحصول قليل أم كثير، سينتج عنه عمل وإنتاج أكثر للفلاحين أفضل من السابق .

ولأن الضريبة الموضوعة لكل دونم لن تتغير، فإنه كان يحصل بمقدار الزيادة التي تخرج للفلاح، ولن يتعجب معظم الفلاحين من هذا النظام لأنهم كانوا يعرفون الضريبة التي تأخذ على الجريب في حدائق النخيل الموجودة بالبصرة.

وفتحت عدة ورش عمل لإصلاح الماكينات في عدة أماكن مناسبة في لوائي **العمارة والمنتفق** ولأن السفن الشراعية الموجودة لن تكفي للنقل فقد تشكلت شركات للنقل تمتلك مراكب كبيرة خاصة بالنقل .

وكانت أجرة النقل بالسفن بين بغداد والبصرة والعمارة باهظة الثمن، ففي حين كان يتم نقل طن الدقيق من أمريكا الجنوبية إلى مرسيليا بما يعادل من خمسة إلى ثمانية

فرنكات وكان هذا أجر بســـيط، كانت أجرة النقل على نهر دجلة للطن الواحد ما بين 12 إلى 25 فرنك، وكان هذا المبلغ يساوى الأجرة بين البصرة ولندن .

ولأن زراعة القطن كانت قد زادت جدا في الســـنة الثالثة، فقد اتحد اثنان أو ثلاثة من أصحاب رؤوس الأموال وأسسوا مصنعا لاستخراج زيت بذرة القطن، ونجحوا أيضا في تأسيس مصنع للصابون من خلال ذلك المصنع، ولم تسلط الضرائب الباهظة على تلك المؤسسات .

وجال بخاطري أيضـــا أنني فتحت أفرع لبنك الزراعة في مركز الولاية والســـناجق التابعة له، إلا أنها لم تســـتطيع العمل بالدرجة المأمولة فيها، فقد كان البعض ينتظر بفارغ الصـــبر افتتاح بنك التنمية الصـــناعية الذي كان على وشـــك آلافتتاح، لأن أحد أهالي الروملى أصـــحاب الهمة كان يعد لافتتاح مصـــنع للجوارب والأقمشـــة القطنية والصـــوف ، وآخر ســـوري كان يعد لافتتاح مصـــنع للجلود، وثالث بغدادي كان يعد لافتتاح مصنع للورق.

وتأسست شركات التأمين على البضائع ضد حوادث الغرق، وتم البدء في غرس كافة أنواع الأشجار في هذا الإقليم، فقد كان جمال شجر الليمون والبرتقال والخوخ التي تزين طول ســـواحل الأنهار جمالا يلفت الإنتباه، ولم يكتف بعض الشـــباب أصـــحاب الأراضـــي المتعلمين بهذا فقاموا بجلب الأشـــجار النادرة القيمة من بلدان الأقاليم الحارة المشـهورة بالأشـجار مثل جمهورية الأرجنتين، وزينوا بها حدائقهم، ولم تترك محاصـيل أشجار الفاكهة طازجة، فقام بعض الأشخاص البصريين بتأسيس مصنع مجهز للغاية لإنتاج المربة، وكانت هذه الحلوى الأصـلية التي لا غش فيها المغلفة بواسـطة الماكينة ترسل إلى كافة نواحي الدولة بأسعار مخفضة، حيث كانت تباع في الأسواق .

وفى النهاية تم توصيل خط السكك الحديدية، ونمى هذا الخط .

لقد كان حال الأوروبيين الذين أتوا للعراق للتدقيق والبحث فيها عن أعمال يلفت الإنتباه، فهذا فرنســي كان يبحث عن مكان ليزرع فيه، وآخر بلجيكي كان يريد تشـغيل الماكينات، وهذا مســيو من فرانكفورت كان يتطلع للعمل بالصـــرافة، وهذا إنجليزي كان يفكر في افتتاح مخازن لماكينات الحديد والفحم، والذي كان يلفت الإنتباه بشـــكل أكبر

منهم جميعا ذلك الألماني، فقد أسس هذا الرجل شركة أوروبية، وبدأ في تأسيس فندق ضخم ومزين في بغداد، ومصنع لإنتاج البيرة .

أما أغنياء المدينة فكانوا يتطلعون من بعيد لما هو أجمل من هذا كله وهو تأسيس شركة للسكك الحديدية لحسابهم، كانوا يريدون تربية كل شئ في حقولهم الواسعة للغاية المضاءة بماكينات كهربائية خاصة، قد أسسوا في تلك الحدائق الأحواض على الطراز العربي، والقصور الصغيرة والأيوانات والقواعد المزينة البديعة التي تذكرنا بعصر هارون الرشيد.

والقول بأن شعبنا ورأس مالنا قد حرم من الفندقة – تلك التجارة المهمة العظيمة– هو قول لا مبالغة فيه، فمهنة الفندقة هذه هى بناء أحد الفنادق وإيجاره لأحد الفرنجة، ويحصل منه نسبة خمسة أو ستة في المئة، وإذا ما قلنا أنه لا يوجد في بغداد مدير أو موظف يستطيع العمل في هذا الفندق، أو حتى وجود خادم مدرب على العمل بالفنادق، فإنه من المستحيل وجود فندق إسلامي كبير منتظم في بغداد .

أما السكك الحديدية فقد جلبت للدولة عظمة، ورفاهية كبيرتين، فهى قد جعلت المثل القائل – بغداد ليست بعيدة على الحبيب – حقيقة ملموسة .

***

كانت التجارة تسير بخطى كبيرة فقد بلغت الصادرات مئة وخمسين ألف طن، والواردات ثلاثون ألف طن بالنسبة للثلاثة سنوات الأخيرة، وقد أصبح سنجق **العمارة** في المركز الأول لصادرات الحبوب، وهو ما حقق دخل يقدر بمائتي ألف ليرة، وهذا يعني أن دخلها زاد إلى الضعف، وكانت الواردات السنوية للبصرة تقترب من 2 مليون ليرة بعد سبع أو ثمان سنوات.

ولأنه قد تم البدء في زراعة خمسمائة ألف دونم كانت عبارة عن أراضي خالية في البصرة، وذلك بفضل شق القنوات المائية، فمما لا شك فيه أن الحركة التجارية وحركة الصادرات ستصل إلى ضعفين أو ثلاث أضعاف عما كانت عليه من قبل ، وبالرغم من كل هذا كانت توجد أراضي خالية كثيرة للغاية، كانت تلك الأراضي تصلح لتربية ملايين الحيوانات فيها مثل أمريكا .

وكانت الحكومة تمنع حركة الهجرة من ســـوريا إلى أمريكا ، ومن كانت تراهم مصممون على الهجرة إلى أمريكا لاضطرارهم إلى ذلك كانت تنقلهم إلى العراق .

يا .... يا لهذه الخيالات لقد أثرت على كأفيون الصـين، لقد كنت بين حسـرة مواجهة اضـطراب الحرمان واضـطراب غريب للأعصـاب، متعب ويدعو للحزن ولكنه في نفس الوقت لذيذ وجميل، إن الخيال هو التأثيرات المختلفة المنبعثة من تصـــور أو رؤية سلسلة من الآمال في هذه الأرض الواسعة .

حان وقت الغروب، وانعكست الأشعة البنفسجية للغروب على الصحاري الواسعة، كما كانت تنعكس على قطعان الأغنام والأبقار العائدة إلى مأواها، فتلونها بألوان أكثر خيالية .

كان خيالي لا يزال نشـــطا وكأنه يريد أن يقول لي " من ســـيفعل هذا القدر من العمل، وكيف ســـيفعله ؟ " أجبت عليه قائلا ســـتبدأ الحكومة في فعل ذلك، فهى التي ستقيم الأسس، وستكون على رأس تلك الأعمال لفترة ما، لأن من الضروري أن تكون الأســس ســليمة ، أي يكون على رأس كل عمل أصــحاب علم وفن يســتندون للقواعد الســليمة، أو بمعنى آخر إذا كان أصــحاب الخبرة على رأس العمل فإن كل شــيء بعد ذلك سيكون سهلا .

***

إن هذه القطعة الكبيرة المهمة من الإمبراطورية العثمانية، ليست مع الأسف مثل غيرها من الأماكن، ففي الأماكن الأخرى إذا قامت الحكومة بعمل أثر، فإن الأهالي يقومون بإضافة نصفه، أما تلك المنطقة تفتقر إلى الهمم الكبرى، وفي حاجة إلى القيام بالأعمال الضرورية التي تحتاج إلى مبالغ كبيرة مثل شق القنوات، وعمل الإصلاحات، وتقسيم الأراضي والتوطين .

إن إقليم العراق أكبر وأجمل من مصـــر، فمصـــر الســـفلى قريبة من البحر ومنخفضة، وتربتها مالحة، ويقابل ذلك في العراق البصرة التي تشتهر بحدائق نخيلها، أما مصر الوسطى فعبارة عن أراضي تحتاج للسماد لأنها عبارة عن واد ضيق محاط بالرمال، وفي المقابل نجد العراق تشتهر بأرضها الخصبة ووفرة مياهها ومراعيها، أما مصر العليا فبالرغم من أنها مرتفعة وقوية وتشتهر بأرضها الخصبة إلا أنها أيضا

تنحصر في واد ضيق، وعلى النقيض نجد العراق بها أراض خصبة تتعادل فيها درجة الحرارة ضعف الأرض الموجودة في مصر خمسين مرة .

وبصرف النظر عن تلك الأشياء إذا ما قارنا بين **مصر والعراق** من حيث زراعة القطن، سنجد أن مصر السفلى تشتهر بزراعة القطن حتى أن أجود أنواع القطن في العالم ينبت هناك ولكن عادة ما يتعرض هذا المحصول للضياع بسبب المطر الشديد او الضباب الكثيف، أى أن المحصول يضيع بسبب آفات طبيعية العراق السفلى بعيدة تماما عنها ، وإذا ما تكلمنا عن المياه التي تعد مهمة مثل الشمس والتربة، فسنقول أن مياه نهر النيل تحمل من الطمي في أكثر الأماكن نسبة بها مقدار عشرة سنتيمترات ، أما الطبقة المترسبة من الطمي الذي يخلفه فيضان نهر دجلة فتبلغ من 35 إلى 40 سنتيمترا، وهذه الخاصية تلفت الانتباه أيضا في نهر الفرات .

***

عندما أتيت إلى المائدة مع قبطان السفينة لتناول الطعام صادفت مسافرا أوروبيا، تجاذبت، معه أطراف الحديث بعد أن ألقى على السلام، وعرفت منه أنه مفتش شركة تأمين بلجيكية، وبعد الطعام انسحبنا إلى أحد أركان السفينة على السطح وكان موضوع حديثنا الأحوال الخاصة بالعشائر، وقد لفت هذا الشخص – الذي لم يكن له أي علاقة بالسياسة وكانت التجارة هى عمله الأساسي – انتباهي، حيث قال لي:

- كيف يعيش أفراد هذه العشائر، وكيف يتزوجون، وماذا يعملون، وهل أعدادهم مسجلة ؟
- إن هذه العشائر الشيعية تعيش هكذا في تلك الأكواخ من الحصير، ويوجد لهم معلمون يطلقون عليهم مؤمن أو أسياد، ويتزوجون تبعا لعاداتهم، فلكل عشيرة مكان وجهة، ولكن لم يبدأ حتى الآن في عمل تعداد لهم .
- وماذا عن الخدمة العسكرية عندهم ؟
- لا يؤدون الخدمة العسكرية .
- وحينئذ هل تعدونهم من الأهالي الأساسين، بالنسبة لي، لا يوجد شئ بالنسبة لهم سوى حماية الدولة العثمانية لهم .
- لا ليست بهذه الدرجة، إن أصول العشيرة مختلفة، فكلهم أتباع الدولة العثمانية، وأراضيهم جزء لا يتجزأ من أراضي الدولة العثمانية، وهم غير منفصلين عنها .

- لا أدعى عكس ذلك ولكن اشرح لي، هل هم مالكين للأراضي ؟
- لا إن هذه الأراضـــي ملكا للحكومة، وتعطى بالإيجار لمشـــايخ العشـــائر، ويعمل أفراد العشيرة تحت إدارة الشيخ .
- وهذا يعني أن الشـــيخ بمثابة الأمير المطلق، وتأتي الحكومة بعده، قل كيف يمكن أن يقال عن هؤلاء الرجال الذين يعيشون في فوضـى ولا يدفعون الضـرائب ولا يسـجلون في السـجلات الرسـمية، ويتزوجون بدون علم الحكومة وينجبون الأطفال ويربونهم، ولا يلتحقون بالعسكرية، ولا يكونون تحت سلطة القانون كيف يمكن أن يطلق عليهم أهالي، إنهم بالنسـبة لي – معذرة – عبارة عن مخلوقات بلا وطن وبلا كيان ، ماذا فعلتم لهم، وما هى الرابطة التي تربطهم بكم، ما هى درجة سلطتكم عليهم ؟

هذه هى الصورة التقديرية للأوروبيين عنا وعن الرابطة الغريبة بيننا وبين أفراد دولتنا . وقد تحدثت مع هذا الصـديق عن عدة أشـياء أخرى كان أكثرها عن تجارة العراق وعن الشؤون الاقتصادية للعراق .

كان يجلس على سطح السفينة ما يقرب من ثلاثمائة شخص معظمهم من ركاب الدرجة الأولى، وكنا نتجاذب أطراف الحديث، ولكن يا ترى ما هو الشـيء الذي لم يكن موجود هنا ؟

لقد انقســم ظهر الســفينة الواســع بشــكل عجيب إلى منازل وعائلات، ومجالس أصدقاء وغرف للعزاب، وغرف للحريم وأخرى للرجال .

كان يرى على ســطح الســفينة وبوضــوح تام كيف كان يتم التكيف مع ظروف الهجرة ، وأســتطيع أن أقول لو أن هذا الاســتعداد المحير كان على نقيضــه، لو أنهم خصصوه لإكمال المدنية القوية، لحوّل الغرب أحجارهم اليوم، و لأذابوا حديدهم .

هل تريدون رؤية منزل من الخشب والإسفنج ؟ ها هو أمامكم .

حائط من صـندوقين صـغيرين موضـوعان إلى جانب بعضـهما البعض، وسرير لا يفتح مع صـرة كبيرة تمثل حائطا آخر، فيصـبحا حائطان، وسـحارة([3]) للطعام وبجانبها ثلاث أرائك يكون المجموع ثلاثة، الناحية الأمامية مفتوحة، ومفروش بالسجاد .

---

[3] – **السحارة : صندوق صغير يكون لحفظ الأطعمة وغيرها .**

وكانت هناك امرأة تشـد بطانية على كل ناحية من النواحي الثلاث لسـترها، وفي الوسط يوجد إبريق صنع الشاى، وموقد صاج دائري، عليه الإناء، أما سحارة المأكولات فتكون بمثابة منضـدة اللحوم، إنهم مرتبون للغاية لدرجة أنه يوجد أيضـا ديك على أحد جوانب السـحارة ربطت قدماه بقطعة قماش، ويغلي السـماور (إناء الشـاى الكبير) فيشـربون الشـاى، أما الطعام فيطهى في الجانب الآخر، حتى أنه يمكن لعب الطاولة في هذا البيت، وقرائة كتاب، ونتيجة الترحيب الباسـم والتعارف الذي لم يكن يخطر على البال أحضر لنا صاحب هذا المنزل المصغر الشاي وهو يتحدث معنا وهو يتكأ على الشرفة المواجهة له، وقدم لنا أقداح الشاي الصفراء .

أما القبطان (**قاؤلي**) فكان مشـغولا في الجهة الأخرى في علاج عين طفلة صغيرة فقيرة كانت تؤلمها، فكان يمسح عين الطفلة بالقطن المبلل بماء حامض البوريك . كان يوجد على ظهر السـفينة النائم، والمسـتيقظ للصـلاة ، والذي يحكي الحكايات، والذي يغسل الملاءات، والذي يدخن بواسطة المبسم الطويل، والنائم ....

***

وبعد تناول طعام العشاء مع صديقى البلجيكي، لم أستطع التحدث معه كثيرا، فقد كان كلانا لديه ما سيكتبه .

وفي غموض الليل الخالد كانت السـفينة تسـبح في الماء بعظمة حضـارية وكأنها بطة أسطورية من كبر حجمها ومنظرها الخيالي.

لم يكن هناك صـوت قط يصـدر من بلدة المتجولين في الطابق العلوي، لأنهم يسـتيقظون مبكرا وبالتالي ينامون مبكرا، ولا يفكرون أو يحلمون بأي شـيء قط طوال المدة التي يكونوا فيها نائمين، فهم من الطبقة المحكوم عليها بالنوم حتى في حالة اليقظة .

***

صباح اليوم الرابع لرحلتنا

كنا نمر من أمام قرية كبيرة كأنها منسـوجة من الحصـير، وكان ما يقرب من ثلاثين طفل ضعاف عراة يهرعون إلى الساحل بموازاة السفينة، وذلك من أجل التقاط أي شيء

نقوم بإلقائه في النهر كشـريحة بطيخ، أو واحدة من الطماطم، أو قطعة خبز أو برتقالة أي شيء كان سيسد رمقهم، يهرعون ويتوسلون إلينا .

أما الآباء والأمهات فكان هذا بمثابة المســـرة لهم، حتى ولو كان ما يلقى لهم واحدة من الطماطم الصـــغيرة، كانوا يفرحون لأنه طعام ليس موجود عندهم، والأطفال يســابقون بعضــهم البعض في التقاط هذه الأشــياء البســيطة الملقاة في النهر وتقذفها الأمواج لهم .

الرجال والنســـاء، كل الكبار هناك كانوا طوال القامة يافعين، ولكنهم عظام وجلد وقليل من اللحم، صدورهم عريضة، أقوياء الأقدام، سيماهم بشوشة ولا تبالي دائما على الرغم من حالة الضـنك التي يعيشـون فيها، أما نظـــرتهم فتبدوا دائما مسـتهزئة وذات مغزى .

ويتهورون أحيانا، وإذا ما وجدوا مســاعدة من عشـيرة أخرى فإنهم يهددون السـفن بالأسلحة، بل ويصلون لدرجة سرقة المراكب الشراعية بسهولة، إنهم مخلوقات مريبة.

كان القبطان مشـــغول بالكتابة في غرفته، أما أنا فكنت أتحدث مع صـــديقي البلجيكي في ردهة نظيفة كانت أمام هذه الغرفة، وقد قال لي هذا الشـــاب " آه لو أتم رحلتي هذه بنتيجة طيبة، فبمجرد أن أعود إلى فرنسا ستكون خطوبتي وزواجي هى أول عمل أقوم به، ولأن ذهابي إلى أمريكا للتفتيش ضروري، فستكون هذه فرصة جيدة لكى أقوم بنزهة جميلة مع زوجتي " .

يا له من شاب سعيد ومتفائل، فعمله وصحته ومكسبه كل على ما يرام، فبينما لا يزال في الثامنة والعشـرين من عمره، إلا أنه معتمد لدى مجموعة من شـركات التأمين، فإذا ما وقعت حادثة بحرية على شركة التأمين تأدية مبلغ التأمين، واذا كان المبلغ كبيرا تقوم شـــركة التأمين بإرســـال مفتش كهذا ليقوم بالتحقيق في الحادثة في مكانها، وقد سألته عن تنشئته .

ابتسم وقال : إن أمر تنشئتي ليس بالأمر المهم فأنا لست دبلوماسي كبير، ولكني بعد أن أتممت دراســة الحقوق في **بروكســل** كان عمرى وقتها 22 عاما، ووالدي كان رجل ثري يشـــتغل بالتجارة، فقام والدي على الفور بإبعادي فأرســـلني إلى بنك في هامبورج، وقد حدد لي البنك في بادئ الأمر 100 فرنكا كراتب شـــهري، وكان والدي

يعطيني مثلها، بقيت في هامبورج سنتين، وفي ختام السنة الأولى لي رفع البنك راتبي ليصبح 200 فرنكا في الشهر، وحينئذ قام والدي بقطع نصف ما كان يرسله لي، وأنا الآن مسرور من وضعي، وأعيش حياتي على التوفير ولكنها حياة نظيفة، وقد قمت بتحويل وظيفتي من **(هامبورج)** إلى**(أنوه رس)** بثلاثمائة فرنكا، والآن لا أخذ شيئا من والدي، وقبل سنتين أخذتني جمعية شركات التأمين براتب 600 فرنك، وكان راتبي العام الماضي 800 فرنك في الشهر، ولأنني أذهب في الوقت الحالي إلى الأماكن البعيدة مثل الشرق والعراق فإن أتقاضى ضعف هذا المبلغ مرة ونصف ، ولي بدل سفر عن أجرة السفينة والسكك الحديدية طوال مدة رحلتي تبلغ 25 فرنكا في اليوم، ولو تقدمت في هذا العمل سوف أتقاضى شهريا 2000 فرنك . آه يا لجمال العمل والترحال ...

***

وعند وقت الظهر مررنا من أمام أطلال **(طاق كسرى)** العظيمة وقد رأيتها مثل القفص الصدري الضخم من بين آلافق البراق والوديان الخالية، وكان على القبطان أن يخرجنا إلى ذلك المكان، وذلك لأن النهر هنا به تعرج شديد، فكنا سنذهب بين تلك الأطلال نصف ساعة، ثم نسير ساعة أخرى على الساحل سيرا على الأقدام، أي أننا لا نركب السفينة لمدة ساعة ونصف هى زمن طول هذا التعرج الموجود بالنهر ثم نركب السفينة مرة أخرى من المكان الذي ينتهي فيه هذا التعرج .

نزلنا إلى الساحل، وسرنا في جماعة كبيرة في اتجاه أطلال طاق كسرى، ولم ينفصل عني صديقي البلجيكي قط، لأنه كان يومئ إلى بأنه إذا لم أكن موجود معه سوف يكون وحيدا، وصلنا إلى الطاق في ساعة إلا ربع، ، فكان للتاريخ القديم هنا عظمة خاصة بفضل هذا الطاق الباقي الحزين الشاهد على حضارة **الساسانيين** وقوتهم، فقد كان الطاق عبارة عن حائطين كبيرين المسافة بينهما 25 مترا، ويبلغ ارتفاعهما 37 مترا، يستقر عليهما قبو يتجه صوب الداخل بعمق 50 مترا كانت تمثل بهو الاستقبال الذي كان يطلق عليه وقتها " القصر الأبيض "، لقد وقفنا فترة طويلة أما هذا السكون الأبدي الذي يعلوا سمة القرون الأولى والتي تطل على أنقاض هذا الطاق الذي كان يتوسط مدينة عظيمة كانت تضم ستمائة ألف نسمة .

كان تأثير الشمس شديدا ، عدنا من الأطلال وسرنا في الاتجاه الذي تنتظر فيه السفينة، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى مركز الناحية، وهناك وجدنا ملاذا آمنا نظيفا في غرفة مدير الناحية التي كانت واسعة كان بها كراسي منخفضة مغطاة بالقماش الأبيض ، قُدمت لنا القهوة في الفناجين المزينة بالنجوم، أما صديقي البلجيكي فقد اتخذ أطوارا عجيبة ليستطيع الجلوس على تلك الكراسي المنخفضة، ومعظم الوقت كان ينظر إلي ويحاول أن يقلدني، ولكنه كان مسرورا من وضعه ...

وبعد هذه الاستراحة القصيرة نزلنا إلى الشاطئ، وكان هناك فناء به بيت قديم، وحديقة صغيرة مهملة، ومجموعة من القباب الصغيرة التي طليت مجددا بالجص، وكان بها ثلاث أو أربع شجرات من الرمان، وبعض فسيلات النخيل .

وعندما قلت المياه في النهر، كان يوجد على الشاطئ زورقين، كان بهما مئات الأجولة المربوطة بإحكام بالصوف المفتول، كان يوجد بها البرتقال والأكواب والصواني وغيرها من البضائع، وقد أخذنا كمية كبيرة من هذا البرتقال، كنا نقترب من سفينتنا شيئا فشيئا وبعد أن انتظرنا طويلا، صعدنا إليها، حيث كنا سنصل إلى بغداد في اليوم التالي .

مر المساء بتعب قليل، ولكن نسيم المساء الخاصة بهذا الإقليم كانت توحي بالسكون التام ونظم الشعر .

أما الشاب البلجيكي الذي كان يشعر بضرورة ذهابه إلى مكتب البريد بمجرد نزوله إلى بغداد لتسليم الخطابات الطويلة التي كتبها إلى خطيبته فقد انسحب إلى قمرته، وترك باب القمرة مفتوحا وغاص في الكتابة، وقد كنت أتألم وابتسم في نفس الوقت على عشقه وعلى شبابه وعلى خطيبته، كلما فكرت في اهتمامه واقتناعه بتلك الكلمات الفانية التي يكتبها على أوراقه .

وفي الصباح تجولت في السفينة كلها تجول خاص بآخر يوم لي في الرحلة .كنت أتأرجح بين البقاء وعدم البقاء في العراق، فبينما كنت أفكر أنني سأخرج من العراق، كانت تراودني فكرة البقاء فترة أخرى، ثم أعود فأفكر في استانبول وسوريا، ولم تدم هذه الحالة فترة طويلة معي، وكنت قد ابتليت بعذاب فراق تلك الأرض – العراق – التي كنت أود عمل مجموعة من الأشياء بها، ولم أستطع التفكير سوى في شيء واحد وهو

أنه ثمة مجموعة من الأشـــخاص مثلي أفنوا ســـنوات بل أعمارهم كلها في تلك الديار، ولكني لم أكن أشـــــعر بهذا، لأن هناك فرق بيني وبينهم بقدر الفرق الموجود بين القوة والضـعف، الحقيقة والخيال، الاسـتبداد والمشـروطية، الصـيف والشـتاء، كنت أرى هذه الفروق ولكني راحل .

خرجنا من بغداد وقت العصـر، وتشـتت كل من في السـفينة كلية، ولكننا انقسـمنا في تلك المرة منا من ذهب إلى الفنادق ، ومن ذهب إلى الخانات، ومن ذهب إلى المنازل .

وقد صادفت رفيقي البلجيكي في السوق ذات يوم وأنا أشترى سجادة، وقد تقابلت معه مرة أخرى في الفندق، وبعد ستة أشهر وأنا في سوريا اشتريت صورة التقطت على أحد البطاقات ، وحينئذ تذكرت العراق والأيام التي قضيتها هناك .

زيارة كربلاء

في أحد ليالي بغداد الشـــتوية الرطبة الحزينة خرجت إلى الشـــارع أنا وثلاثة من الأصـدقاء السـاعة التاسـعة، كان أمامنا المصـباح، وخلفنا شـخصـان يحملان سـلال الطعام وحقائب الطريق التي تغطى حتى رقبتهم، ذهبنا صـــوب الجســـر، فقد كانت سيارتنا التي ستقلنا إلى **كربلاء** تنتظر على الضفة الأخرى من نهر دجلة .

لكم كنت في تلك الســاعة ملئ بالســعادة والخيالات، ولأنني نمت في الخامســة واســـتيقظت في الثامنة كنت متعبا، وبالرغم من هذا التعب كنت أتلذذ من الفرحة التي اعترتني لأنني سأقوم بهذه الرحلة التي رسمت لها أشكالا عديدة في مخيلتي، كما أنني كنت أتلذذ بتلك الرياح التي توخذني في وجهي كالإبر ، وما تجلبه لي من آمال.

عبرنا إلى الضـفة الأخرى، وبعد أن سـرنا في عدة طرقات معوجة وخالية، وصـلنا إلى موقف العربات، كانت توجد مقهى واســـعة ممتلئة بالدخان يضـــيئها مصـــباح أو مصباحان، يجلس بها في تلك الساعة شخصين أو ثلاثة مدفونون في عباءاتهم يلتفون حول النارجيلة، كما كانت توجد الحظائر الممتلئة برائحة السماد، والتي تأتي من داخلها أصوات السائسين، وصدى صوت طرق أقدام الخيول، كانت السماء مغطاة بالسحب، ولم ينفرج هذا الستار الكثيف من الظلام إلا الساعة الثالثة، كنت أشعر ببرودة بسيطة .

وجدنا عربتنا، كانت مثل الأوتوبيس الصـغير تسـتوعب ثمانية أشـخاص يجلسـون في مواجهة بعضـهم البعض، كان المكان الذي سـأجلس فيه خشـب بدون مسـند وبدون فرش .

أعطينا السـائق الأجرة، فنادى السـائق على السـائس بغلظة ليحضـر الدواب التي ستجر العربة، فهرع السائس بثلاث دواب إلى العربة، وحمّل أمتعتنا، وركبنا، كنا نسير في صحاري مظلمة .

وقد فرشنا سجادة وأريكة على الأرائك الخشبية للعربة، وذلك لتليين المكان الجاف الصلب الذي نجلس عليه، أما الرياح الباردة التي كانت تصطدم بنا من الجهات الأربع فلم نستطع أن نجد لها حلا، وقد قام أحد أصدقائنا بفرش سجادته بين الأريكتين ، وأنزل بينهم حقيبة من الحقائب واستلقى، ومددت جسمي أنا الآخر، أما ثالثنا فقد لف نفسه بعباءته وبطانية واستلقى هو الآخر على الاريكة ، وغصنا في نوم غير مريح، وكانت السماء تمطر وتتوقف بشكل مطرد، وعندما أسفر الصبح رفعت رأسي ونظرت حولي فوجدت منظرا محزنا فالأرض أصبحت موحلة من المطر، والمطر لا يزال مستمرا ولكن بشكل بسيط يشبه الرزاز، دققت النظر بشدة لأنني سأمنع نفسي من مطلب جد كبير كان يراود فكري وهو " لو كنا نعرف أن المدينة قريبة لعدنا من فورنا " .

قلت في نفسي لا ، لا وتركت تلك آلافكار، وقلت في نفسي سأتمكن من زيارة فضولي([4]) بعزيمتي على ذلك، كنا نسير بسرعة تحت سماء تشبه لون التراب، لم يكن أمامنا سوى الطريق الطويل الخالي الموحل، كان من المحال أن نرى في هذا الطريق شجرة أو طير أو أي شيء ذى روح، وبالرغم من كل هذا كنت سعيدا وراضيا بتلك الوحشة وهذه الغربة الجميلة وهذا التعب المقبول .

كان تأثير المطر يزيد كلما كانت الساعات تمر، وكان هذا التأثير يرى بوضوح في عمق الآثار التي تخلفها عجلات العربة خلفنا، ومع الساعة الرابعة بدأنا نرى القوافل الصغيرة المتفرقة من ناحية كربلاء، كانت تلك القوافل تضم زوار العجم من الرجال والنساء والشيوخ والشباب يمتطون البغال ومنهم من تدثر بفراء من وبر الغنم ومنهم من تدثر بالكليم، وقد علقوا على دوابهم مستلزماتهم وتحتها السجادة وربطوا الأريكة على جانب الدابة، كما كان يوجد من بينهم الزوار الفقراء الذين جاءوا مترجلين يتكئون على عصيهم في هذا الوحل الذي يملأ الأرض، كانوا جميعا يسيرون في انقياد

---

[4] – من مشاهير شعراء الترك، اسمه محمد بن سليمان، أما فضولي فهو مخلصه في الشعر، يلقب فضولى بأمير الشعر التركي القديم ، ولد ونشأ في منطقتي النجف وكربلاء بالعراق، له ديوان بالفارسية وآخر بالتركية، توفي عام 963هـ / 1556م، وقبره بكربلاء بالعراق . Fuzuli ve Turkce divanindan Secmeler, Hasibe Mazioglu, Ankara 1992, s . 2 .

وسكون تام، يسيرون في هذه المشقة ولكنهم راضون تماما بهذه المشقة في سبيل الوصول إلى الحسين العظيم ليمسحوا وجوههم على أعتابه بمشاعر وفكر صادق ليحيوا ذكراه وليطفؤا نار قلوبهم، يسيرون في تلك الصحاري الموحشة ويطوون المراحل بهدف الجلوس عند قبره والبكاء عنده .

وكلما كانت القوافل تذهب كانت تزداد كثافة، وأصبح هذا الطريق الطويل الذي يبلغ خمسة عشر ساعة من بغداد وحتى كربلاء بمثابة الطريق الحيوي الفعال الكبير، فقد كانت تمر من جانبنا قافلة كل ربع ساعة، وكان المنظر المحزن لهؤلاء المساكين الذين غطى الوحل أقدامهم حتى ركبتهم يمس القلوب ويسحق الروح كلما مروا علينا .

وفي وقت الظهيرة وصلنا إلى ناحية **المسيب** التي تعد منزلا لما يزيد عن منتصف الطريق، نزلنا على ساحل نهر الفرات، وقد اتكأنا على العصي التي في أيدينا وأمسكنا بالحائط من الناحية الأخرى ونحن ننزل حتى لا تغوص أقدامنا في الطين، وبعد أن تجولنا في شارع وسوق القرية.

وكنا مضطرين لأن نعبر الجسر الخشبي الموجود حتى نصل إلى الضفة الأخرى من النهر وذلك لأن عربة أخرى كانت ستقلنا إلى كربلاء، فعلنا هذا وحملنا أمتعتنا على العربة وتناولنا الطعام مع بعضنا ثم شربنا الشاي في إحدى المقاهي – المليئة من داخلها بالدخان – الموجودة على ساحل النهر .

هبت الريح ولكن بشكل بسيط، وبينما كنا نسير كانت الشمس بين الحين والآخر تستطع وتغيب – في دقائق– حسب حركة السحب الكثيفة ، كان النهر جميلا، وعلى ضفافه نسمات جميلة، وبعد أن سرنا عدة دقائق في شوارع القرية التي كانت تشبه الأحراش اتخذنا سبيلنا في الصحراء من جديد .

وكانت هذه الناحية أيضا تدعوا للكدر فقد كانت مليئة بالمياه والطين، وبعد قليل بدأ المطر من جديد، وكنت دائما أفكر في طول الطريق، كلما أتذكر أنه لم يكن أمامنا حيلة أو قوة في هذا الوضع سوى الضربات الظالمة التي يضربها سائق العربة للخيول حتى تسير بسرعة ...

وقد مللنا كثيرا من الاضطراب والتعب، كانت الخيول تسير مهرولة في الطين من صيحات السائق العالية وضربات كرباجه، كانت تهرول بين الممرات الضيقة والقنوات

غير المنتظمة، وعند العصر بدأنا نرى حدائق النخيل تبدو من بعيد بين الضباب، إن هذا العالم المجهول في نظري ملجأ آمن . وقلت لنفسي حينئذ بالتأكيد إن هذا النخيل نخيل كربلاء ....

وفي الساعة الحادية عشرة مساءا وصلت عربتنا إلى حديقة نخيل طويلة تسترت بالدخان الأزرق والضباب، وكانت السماء وكأنها تغط في نوم عميق، وإذا كان هناك شيء يصرخ أو يهرول أو يحدث ضوضاء بين تلك الموجودات فسيكون بالتأكيد عربتنا وسائقها وخاصة الثلاث خيول التي تجرها .

عبرنا بعض الممرات الحجرية، ودخلنا بين حدائق النخيل، ولكننا ما نزال لا نرى المدينة، كان المكان كله عبارة عن أشجار النخيل الحزينة الساقطة، وأشجار أخرى ذابلة تقف كأنها هياكل عظمية يخرج الدخان من عند رأسها، كان المكان بمثابة عالم حزين صنعته رياح الصحراء التي تدعو نفس الإنسان إلى الملل والضجر .

وعلى يسارنا كان يوجد مزار به شجر السرو المظلم، أما تلك القامات المستوية الموجودة في حدائق النخيل التي على جنوبنا، فكانت أشجار النخيل الذابلة .

سرنا فترة طويلة داخل تلك الحدائق المحاطة بحوائط من الطين، وقد أوحى لي هذا المنظر غير الجميل بأحاسيس وخيالات تاريخية . شعرت بحزن منطفئ تحت أشجار النخيل، على أي حال كانت تلك الأشجار بمثابة المأتم الذي يذكر بألم واقعة كربلاء، وأستطع أن أقول أنني كنت أشعر بغم وانكسار في قلبي بتذكر تلك الواقعة، وأستطيع أن أقول أيضا أن كل أحاسيس هذا اليوم والسمة الحزينة لهذا اليوم وآلافق الممتلئ بالضباب لم تكن كل تلك الأشياء سوى تصور خيالي استقر في مخيلتي لمشهد الحسين الذي بقي فيه فضولي لعدة سنوات .

لا يزال هذا الدخان الكثيف وهذا الضباب الأزرق موجود ....

سرنا نصف ساعة بين الحدائق، ولازلنا لا نرى المدينة أو مقام الحسين بقبته ومآذنه الذهبية، وصلنا إلى جسر صغير كانت المياه تتدفق من تحته، وعلى الضفة كان يوجد قصر مهجور أسوّد لونه طلائه، وأوشكت نوافذه على السقوط، اغتر خيالي بهذه المناظر الموجودة في هذا المكان المهجور، وعلى ما يبدوا أننا دخلنا في أول شوارع كربلاء .

وكان مفهوم الخطاب والتلغراف الذي كتبه أحد أصـدقائنا في بغداد وأرسـله قبل يومين للشيخ **عبد الحسين دده** شيخ الطريقة **النقشبندية** في كربلاء، أنه قد أمن لنا الضيافة في التكية، أوقفنا عربتنا في السوق، وسألنا عن الشارع الذي تقع فيه التكية، فقالوا لنا إنها موجودة بجوار أحد أبواب الصحن الشريف الذي يشكل فناء مقام الحسين، ذهبنا إلى هناك، ووصلنا أمام الباب بعد خمس دقائق، وعندما وقفنا أما الباب تقدم إلينا ثلاثة أشخاص، ثم استقبلنا بعد ذلك الشيخ وكان شابا رقيقا بقدر ما هو بشوش، ولن أستطيع أن أنسى قط تلك المقابلة التي قابلنا بها الشيخ وما أظهره لنا من حب خالص .

لكم كانت صـــفرة القبة المطلية بالذهب بين الضـــباب عظيمة جدا، وكم كانت التموجات التي تموج بها الراية المنسوجة من الحرير الأسود التي على قمة القبة تدعوا للتأمل والخيال، وقد رأيت أن المنطقة هنا تعيش- قبل كل شـــيء- في ذكرى مبهمة لأنين حقيقي ومأتم أبدي .

وقد تجولت في قسم بسيط جدا من الفناء، كان ثمة اختلاف خاص هنا حتى في أرضية التكية المفروشة بقطع القاشاني، وفي الدور العلوي يوجد السلاملك وأول شيء يوجد بعد السقف المواجه للصحن الشريف تلك القبة العظيمة التي ترتفع بين مئذنتين مطليتين بالذهب، وعلى القبة توجد راية ســـوداء، وقد ســـرحت في هذا المنظر وهذه الموجات من الغم التي أنزلها على ذلك الليل تدريجيا، كان خيال هذا اليوم مختلف كثيرا وأستطيع أن أقول أنني غبت في خيال من نوع جديد كلية بالنسبة لي .

هذه الهيئة التي لم أستطع رؤية قسم منها في تلك اللحظة، كانت تبدو لي بشكل أكثر وضـوحا على أنها عالم آخر من الإحسـاس منفصـل دائما عن كل الوجود، وأن تلك الفاجعة المتجســـدة داخل تلك الزينات والنقوش والفنون والذهب تجعل الروح الحسينية المعصومة تقف متحررة مترفعة فوق تلك المشقات ، وتجعلها غريبة أمام تلك النفائس التي أحاطت بها.

وفي نفس الوقت الذي كانت عيوني تســـبح في حيرة بين تلك البدائع ؛ كانت كل معنوياتي تشـعر بلذة جديدة للغاية من تدفق المشـاعر و الأحـــاسيس التي تميز بين شيئين .

لقد كان مشـــهد الحســـين أكثر مكان رأيت فيه انعداما لقيمة هذا المعدن الجميل البراق الذي يطلق عليه الذهب والذي كان يغطى القباب والمآذن، لقد كان يبرق في عدم يمحى بريقه ، وفناء أكثر معنى ومفهوما من التراب .

وبعد تناول طعام العشاء بساعة غصنا في نوم عميق من شدة التعب، وكان في الغرفة التي نقيم بها حالة من الســكون الثقيل ورطوبة في الأبنية الحجرية القديمة ذات الحوائط السميكة وذات النوافذ الحديدية .

***

أصبح الصبح وتسللت إلى الغرفة الأشعة الوردية الفاتحة للشمس من زجاج النافذة المترب، واســتيقظ أصــدقائي، ولأنني نمت في تلك الغرفة نوما غير مريح خرجت منها على الفور، كان فم الصباح يبتسم ، وبالرغم من أن الأسطح لمعت بالضياء المنكسر للزخارف العربية المصـــنوعة من القطع الزجاجية الصـــغيرة التي تزين أعلى باب مقام الحسين والزوايا الخارجية له، إلا أنها كانت حزينة .

نظرت حولي، وكانت مجموعة الأشـــياء التي رأيتها كافية لأن تؤثر مثلما أردت وأكثر على أحاسيسي لذلك اليوم ...

في تلك الأثناء تذكرت **فضــولى** المســكين، لقد كان هذا الاســم يؤثر بعمق على روحي، فشــعرت بألم غريب، فكرت في هذا الرجل الكبير الذي أصــبح عاشــقا حتى الموت للأحاســيس المفعمة باللألم المجنون والشــوق إلى ليلى بالعشــق الكبير قبل أربعمائة سنة([5])، أحيانا في شوارع كربلاء الضيقة ذات التراب الأسمر التي اسمرت مع ألوان الســـنين، في النواحي التي تعلن المأتم دائما لمقام الحســـين في هذا الركن المظلم من التكية التي أقف فيها، تألمت أيضـــا على من يملك القدرة على تنظيم هذا الاضطراب، وغبطته كثيرا لهذا .

كانت تنتابني أحاســيس تحيرني على هذه المشــاعر اليتيمة التي نمت بالعشــق الأبدي، ولكن معلمها ومكان تدريسـها مجهول، لأنه بالنسـبة لأحاسـيسـي لا يوجد بين مشــاهيرنا من عانى وكان عاثر الحظ أكثر من فضــولي، وفي نفس الوقت الذي كان

---

[5] – نظم فضولي بلغته التركية بلهجتها الآذرية قصيدته الطويلة الذائعة الصيت ليلى والمجنون . (م.ح)

عالمه عبارة عن عالم خيالي بحت ،استطاع صياغته يذهب حتى الأحباب ؛ أظهره بقدرة أبدية وتحويله إلى وجود حقيقي يقبل كل المصائب، الوقت الذي يطلب فيه العشق يهدمه بيده ويبنيه بروحه، فنجد ساقيه في (**منظومة ليلى والمجنون**) الذي يتضرع باحتياج خارق، ويبوح بكل اضطراباته، ليس شيء سوى الشعر القديم لهذا الزمن، أو صورة الإلهام التي تطلبتها القبلات في رواية (**ليلة مايو**) لألفريد دى موسه .

ويعد فضولي هو أول من استخدم ذكائه بشكل بارع من أجل صياغة وتوصيل الأحاسيس القوية التي تحوي كافة الآلام والإضطرابات .

وكان الشاعر (**باقي**)([6]) سلطانا للشعراء، أما الشاعر (**نفعي**)([7]) فقد تفرد حتى في الموت، والشاعر (**نديم**)([8]) دفن في صفاء العالم، أما الشاعر (**نابي**)([9]) فعرف بأنه أستاذ المضمون، وأما الشيخ (**غالب**) فكان منعم بلطف السلطان .

---

[6] – اسمه محمود عبد الباقي ، وهو شاعر تركي عاش فيما بين 1526–1600م، هو من أكابر أدباء الديوان التركي، و باقي الذي أطلق عليه لقب " سلطان الشعراء " قد أحدث تجديدا في شعر الديوان من ناحية الشكل والخيال ، وهذا لأنه أعطى أهمية بالغة في أعماله لفنون البديع والبيان ، فلقد اختار كل كلمة بعناية بالغة ، وكان شعره محكم السبك صحيح اللغة ، فلقد اكتسبت تركية استانبول أجمل نماذجها بأشعاره التي دبجها وأهم وأشهر أشعاره في أدب الديوان المرثية التي كتبها في السلطان سليمان القانوني.

Baki , Ansiklopedik sozluk ,Istanbul 1993 ,C.1,S.271-272.

7 – اسمه عمر ، وهو شاعر تركي ولد في أرضروم 1572 م وتوفي في استانبول 1635م ، عاش في استانبول في عصر السلطان أحمد الأول ، وعاش في رفاهية بالجوائز التي أخذها من رجال الدولة مقابل المدائح التي كتبها في السلاطين والصدور العظام ورجال الدولة ، كما أن نفعي يحتل مكانة متميزة بين شعراء الديوان وخاصة في فن الهجاء ، وقد قتل نفعي بسبب هجاء كتبه في السلطان مراد الرابع أو بيرام باشا ، ولقد جمع نفعي قصائد الهجاء التي كتبها بالتركية والفارسية في كتابه المسمى " سهام قضا ".

Nefi , Ansiklopedik sozluk ,Istanbul 1993 ,C.5,S.1758.

8 – اسمه أحمد ، وهو شاعر تركي عاش فيما بين 1681–1730م ويعد نديم من أهم شعراء الديوان في أدب اللاله ، وعلى الرغم من تمسكه بأصول أدب الديوان إلا أنه أحدث تجديدا في الشعر من ناحية الشكل والمضمون ، واستخدم لهجة استانبول وكون مضامين خاصة به ، وقد طبع ديوانه بالحروف التركية الحديثة ، ويقال أنه مات أثناء ثورة باطرونه ، وقبره يقع أمام محطة جشتكجى في قره جه أحمد.

Nedim , Ansiklopedik sozluk ,Istanbul 1993 ,C.5,S.1758.

9 – إسمه يوسف ، وهو شاعر تركي ولد في اورفه سنة 1642م وتوفي في استانبول 1712م ، لقد استفاد نابي من الأمثال والحكم ، وكتب الكثير من الغزليات بلغة سهلة واضحة ، وأهم أعماله : ديوان خيرية ، سورنامه ، تحفة الحرمين .

Nabi , Ansiklopedik sozluk ,Istanbul 1993 ,C.5,S.1742

وقد ذاق فضـولي سـموم الغم بدلا من بضـعة قروش كان يحتاج إليها، واسـتخدم كلمة البلاء بشكل أصدق وأعلى من كل الشعراء :

إلهي اجعلني مشهورا ببـلاء العشق
ولا تحجبني عن بلاء العشق لحظة
ولا تقلل من عنايتك لأهل الألـم
أي أبلني بالبــلاء الكثير
ولا تثبط عزمي عن البلاء
إني أريد البلاء لأنه يريـدني
ولا تجعل قدرتي رخوة في محبة البلاء
ولا تجعلني بلا وفاء لأقول ما يطعن الصديق

***

كان ضـريح الحسـين يتوسـط هذا الميدان الفسـيح الذي تحيط به الأبنية كالمكتب والتكية والمدرسـة والسـبيل، وقد توشـح كل شـيء بما يشـبه سـتار الربيع من أحجار القاشـاني المنقوشـة بالزهور وآلافرع النباتية والألوان الحمراء والخضـراء والبنفسـجية والصـفراء حتى الأسـقف والأطناف والقبوات والأعمدة من الجهات التي تطل على الناحية الداخلية لمجموعة الأبنية التي تنفصـل عن الشـوارع المحيطة بالضـريح، وكان ثمة انتظام تاريخي جامد عاش لم يمس قط في أي وقت بنسـيم خيالي، عاش بين الطاقات المزينة بالألوان البراقة لقصـور دارا، صـورة للخيال الإيراني القديم تشـكلت من النرجس والخزامى والسنابل والورود، كان هذا الفناء يعج بالزوار الذين يشكلون الأسياد المعممين بالعمامات السوداء والخضراء والواعظين الذين يطلق عليهم مؤمنين، والفقراء و الأراذل، والأطفال والشحاذين، والنساء اللاتي تسترن عن آخرهن بالملاءات السوداء، وكان لهذا الصـحن الشـريف خمسـة أبواب كبيرة تفتح على السـوق ، كانت تلك الأبواب مرتفعة ومزينة .

تجولت في الصـحن مع أصـدقائي والشـيخ، وفي أثناء تجولنا صـادفنا أحد مداخل مقام الحسين، فأعطينا أحذيتنا لمسئول الأحذية الواقف على الجانب، ودلفنا إلى الداخل

من باب مغطى بالمربعات الذهبية، كما كانت الحوائط من الداخل ومن أعلى مغطاة بالذهب .

كان الباب الفضـــي المشـــغول بالزهور والنقوش النباتية المحفورة الصـــغيرة للغاية، وظرافة الصـــنع وبديع الفن يوقظ المشـــاعر البراقة الصـــافية، وكان المكان من الداخل يزدان بمرثيات الحســـين المحفورة بأجمل وأنفس خطوط التعليق الصـــغيرة والكبيرة، كما كانت تقرأ عبارة (الحســـين الشـــهيد) و (الحســـين المظلوم) المصـــبوبة من البللور الأحمر في صينية من الزجاج مدفونة في أرضية مذهبة على جانبي الباب .

وعنِدما دلفت إلى الداخل قليلا من هذا المدخل الغاية في التزين والجمال، وجدت نفسي أمام سياج فضي مرتفع وثقيل مصنوع من المربعات الكثيرة يحيط بقبر الحسين، ويعرض الإطار المرتفع إلى أعلى من هذا السياج سلسلة من النفائس بخطوط التعليق المحفورة بشكل رقيق للغاية .

وقد تزينت حوائط وزوايا وقبة هذا المكان بعناية فائقة وصـــــلت إلى أدق الأماكن فيـه من الزجـاج، أمـا القبـة فقد تزينـت من الـداخـل بنقوش لطيفـة متنـاغمـة من آلافرع النباتية الملتفة على بعضـــــها، ومن الورود و البراعم، والعديد من آلافرع ذات النجوم المذهبـة المحفورة والتي لا يمكن رؤيـة وتحديد من أين تبدأ وإلى أين تنتهي بســـــبب وجودها كلها على مرآة مقعرة غطت باطن القبة كلها، ودائما ما كنت أصـــادف كلمات (الشهيد) و(المظلوم) على النقوش الخطية الموجودة أعلى زجاج الحوائط وعلى إطاراتها .

ويتدلى من الســـقف النجف الكثير، منه الكبير ومنه الصـــغير، كما وضـــعت الشـــمعدانات في كل مكان، وبينما يدخل الضـــوء الخفيف من النوافذ فيضـــيء بعض الأماكن، تبدوا النجوم والبلورات مظهرة جمالا خافتا وتبسـما مسـتترا في بعض الأماكن الأخرى، وهذا النوع من الذوق الفني البحت إنما هو خاص بالشرق .

ويتوسـط الضـريح قبر الحسـين الذي تحيط به من الجهات الأربع صـفة واسـعة متصـلة بالأبواب المتعددة، تجولت بتلك الصـفة، كانت هذه الأقسـام خالية نسـبيا، أما القسم الخاص بالنساء فتجد فيه النساء يتسترن بالملاءات السوداء ، منهن من تقرأ في

إحدى الكتب ، ومنهن من تصلي، وبعضهن جلسن أمام شيخ اتكأ على الحائط وخطب فيهن خطبة عن سيد الشهداء الحسين فيبكيهن .

وقد نزلت من السلالم الرخامية من مكان داخل الضريح، ورأيت المكان الذي سقط فيه الحسين شهيدا في جانب غرفة صغيرة حجرية .

***

وبكربلاء سوق مغطى مزدحم ومنتظم للغاية، و البضائع آلافرنجية هي الأكثر رواجا في معظم حوانيته، به الأسياد المعممون بالعمائم الخضراء، ويزدحم هذا السوق بالبائعين الذين يبيعون العطور في الزجاجات المزينة بالنجوم، وصانعى الأحجار المكتوب عليها من أعلى والتي يضع الشيعة جباههم عليها أثناء الصلاة ويطلقون عليها تربة، وبائعي المسبحات وكذا الصرافين، وبائعي التحف، والسراجين، والحائكين، وصانعي الأحذية ، وبائعي اللبن والزبادي والزبد، ولم أر بائعا للكتب سوى حانوتا واحدا كان موجودا في زاوية أحد المنازل .

أما بائعو الحلوى والفاكهة المتجولون فكانوا كثيرين جدا في الصحن الشريف وعند الأبواب .

وكان يوجد عند الأبواب وعند جدران الحوائط بائعو صور الإمام على والحسين وكانت صور سيئة مطبوعة بلون واحد فقط، على ورق دعاء مطبوع طباعة حجر، كما كان يوجد من يقوم بخطها بخط اليد ولكنهم كانوا أغلى من هؤلاء .

لم نتمكن من العودة إلى التكية إلا وقت الظهر وبعد تناول الطعام صعدت إلى السطح لأتشمس وغصت في مشاهدة الضريح، لكم كان منظر المئذنتين المغطاتين بالذهب من المآذن الثلاثة جميلا، وكان يوجد إطار عريض أعلى تلك المآذن نقش عليه بالخط الجلي الأسود البديع على أرضية مذهبة، وأسفل هذا الإطار كان يوجد إطار أصغر منه في الحجم زين بخطوط التعليق البديعة، أما المئذنة الثالثة فقد غطيت بقطع القاشاني، وأعطيت شكلا ظريفا بالنقوش الملونة الموجودة عليها .

وقد قررنا الاستراحة قليلا بعد الظهر، وكان الشيخ لا يحرمنا قط من مصاحبته الممتعة، حتى في الأوقات التي كان يضطر فيها أن يغادرنا كان يعود إلينا سريعا، وقد انتبهت كالمستيقظ من النوم فجأة وقلت للشيخ " أين فضولي ؟" فابتسم وأجابني عندنا .

واســـتطرد قائلا لي إنه مدفون في قبره أمام منزلي الخاص ســـنذهب لزيارته بعد قليل، قال هذا وهو ينظر إلى وجهى وهو فى حالة تعجب من الفرح الذي كنت فيه، لكم كنت سعيدا بذلك، لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن هناك أحد قد أخبرني بشكل مؤكد عن مكان مدفن فضولي ومستقره الأبدي.

كنت سعيدا مسرورا وكأنني سأرى فضولي وأتحدث معه، خاصة وأنا أسير من الطرقات الضيقة القديمة، كنت أشعر بأنني سأقابل فضولي هناك .

واســتكمل **الدده**([10]) أفندى كلامه قائلا : كنت أفكر في مصــراع فضــولي الذي نظمه في غزليته وقال فيه " لتفكر بأن تقيم قبري ، وتزرع بجانبه شجرة سرو " لقد كنت في حالة وكأنني مأمور ببناء القبر من جديد ، والضـــريح الموجود كان بالتكية التي بناها الشيخ **عبد المؤمن دده البكتاشـي**([11]) قبل خمسمائة عام، ودفن فضـولي بجوار الشـيخ حسـب وصـيته، ويرقد هنا الاثنان فقط، ولكن لا يمكن رؤية قبورهما في الوقت الحالي، لأنهم مدفونون في مغارة منخفضــة، وبعد الانتهاء من زيارة الضــريح، ســآمر بنقب أرضيته، وحينئذ ستظهر الكتابة الموجودة هنا لفضولي .

أصـــبت بحالة من اليأس، فقد انقلبت هذه الدرجة من الفرحة فجأة إلى يأس، لأن هذا كان يعني أنني لن أرى فضـــولي، اســـتطرد الدده أفندى قائلا " إن هذا الشـــاعر العظيم كان من عظماء تكيتنا، عاش هنا، وكان خادما للتكية، والخلاصـــة أنه من الشخصيات التي لا تنسى في التكية " .

---

[10] – دده تعني الجد الأكبر أو شـيخ الطريقة كما ورد في القاموس التركي لشـمس الدين سـامي، ويذكر أوليا جلبي في رحلته أن التعاليم البكتاشـية تقضـي بإطلاق لقب بابا للحاصـلين على درجة بابا وعنوان دده للحاصـــلين على إجازة الخلافة، ولقب دده بابا للرئيس الأعلى للطريقة (المنهج الصوفي للطريقة البكتاشية وتأثيره على السلطة الحاكمة في تركيا، هدى درويش، الزقازيق 2001، ص 27) .

[11] – البكتاشية طريقة صوفية شهيرة أسسها حاجي بكتاش ولى، ويعرف المنتسبون لها بطائفة اللطفاء، تأسست تلك الطريقة في نيسابور، ثم انتقلت إلى بقية المدن العثمانية، وكان لها علاقة وثيقة بالإنكشـارية، حيث كان الأنكشـاريون يعتبرون حاجي بكتاش ولى مؤسـس الطريقة شـيخا روحيا لهم . (Tarikat aliyye Bektasiyye, seyh Baba Mehmed, Ankara 1995, s 17 .)

وكنت قد أحضـــرت معي إلى كربلاء كليات([12]) فضـــولي، وعندما عدت إلى المنزل بحثت عن الغزلية التي ذكرني بها الدده :

يا من أنتم بلا آلام عظمتم قبري بلا علامة

وليكن قبري معلوم من تلك العلامة لأهل الألم

ولو أضع الروح في البئر على قبري

لتكن شجرة السرو علامة على قبري

ابتســم الدده أفندي عندما كنت أقرأ في تلك الأبيات وقال نحن المقصـــودين غالبا من كلمة " بلا آلام " الموجودة في أول مصراع .

ولكني لم أســتطع فهم ماذا يعني بأن الشــاعر فضــولي كان صــاحب قنديل في التكية، فأوضح الشيخ دده لي هذا قائلا " إن كل من يتولي المشيخة في هذه التكية له وظيفة عند مقام الحسين، هذه الوظيفة هى إيقاد المقام كل ليلة، ويوجد في التكية قنديل خاص بذلك عمره خمسمائة عام تقريبا، أشعله بيدى، وأحضره كل ليله إلى باب المقام وقت آذان العشاء، ويقوم السادة المنتظرون بالشموع في أيديهم بإيقاد تلك الشموع من هذا القنديل، وندخل جميعا إلى المرقد وأكون في المقدمة، ويقومون بإيقاد الشـــموع الموجودة بالشـــمعدانات التي في الداخل ثم ندعو ونقرأ الفاتحة، ويتم هذا الإجراء كل يوم، وقبل ذهاب القنديل إلى المقام لا تجد أي ضـــوء آخر، ومع الوقت كان المرحوم فضولي مكلف بإيقاد كافة القناديل الموجودة في التكية .

لقد تأسست هذه التكية منذ البداية على أصول الطريقة البكتاشية وفضولي كان بكتاشيا .

***

أما مقر إقامة الشـاعر فكان معروفا لي، فقد تقربت مشـاعري – التي عرفت منذ فترة بأنه روح مجروحة – إليه أكثر في تلك المرة، قلبه الذي كان يعكس الفراغ والنسيان بلا أشـــخاص في عزلة حزينة غائبة بين الحوائط الحجرية الصـــلبة لمحفل الطقوس

---

[12] – كليات فضولي هو كتاب كبير يضم ديوانه الفارسي والتركي معا، وطبعت منها طبعات عديدة (1268، 1286، 1296، 1308، ، 1318، 1342) (Hasibe Mazioglu, a .g .e, s 26) .

وأحيانا في الغرف الضـيقة تحت القبوات المظلمة بين الأركان العارية السـاقطة للتكية، ولســـت أعرف من جاوره وأمره بكتابة هذه الغزليات الحزينة، حتى هذا اليوم وبعد ذلك أيضا كان مظهرا لبدائع الحسن والعشق، لقد نجح بروحه الحزينة الباكية التي نمت في ذلك المأتم أن يبرز حزنه الجميل وجماله الحزين لكربلاء.

لا أعرف ربما أبالغ بخصوص فضولى قائل هذه الأبيات، ولكن روح الفتاة والمرأة التي في منظومته (**ليلى**) تدل على قلب طاهر ومعصــوم بقدر ما هو لطيف، وقلب مجروح كما هو جميل وحساس، لم أر مثيلا له في شخصيته وذكائه الأدبي .

دخلنا لقبر فضـــولى الواقع أمام أحد الأبواب الكبرى للصـــحن الشـــريف، وكان البنـائون يعملون في الحوائط والقبـة التي لم تكن قد ارتفعت بعد، وكـان أحد العـاملين مشـــغول بـأعمـال النقوش الحفريـة على الطراز العربي في الزوايا الأربع للقبـة، كـان فضــولي والشــيخ عبد المؤمن دده يرقدان أســفل هذا المكان الذي كنا نقف فيه، كانت جبهة الضـريح تدخل عن الشـارع إلى الداخل بمقدار متر، وترتفع أيضـا بنفس المقدار، وأمام الجبهة ســـيزرع على جانبيها شـــجرتين في المكان الخالي والذي يبلغ طوله مترا أيضا وستكتب نقوش خطية على جانبي الباب، وسيقام عليها قفص حديدى.

وعندما رأيت هذا المكان المهجور المتروك منذ ثلاثمائة ســـنة، تذكرت قبر **حافظ الشيرازى** المزين بالعقيق الأحمر الموجود على أجمل وأعلى هضبة في شيراز ويقع بين البلابل والورود تذكرت أننا لن نسـتطيع أن نجد الوقت لتذكر شـعرائنا وأسـلافنا– نحن الأتراك– بما يليق بهم .

وفي تلك الأثناء التي وجدت فيها نفسـي أقرب ما يكون لفضـولي جسدا وروحا في هذا الضـريح تذكرت صـديقي **سـليمان نافذ** بك الذي كان أكثر محبي فضـولي والذي أشعرني بالمشاعر الوطنية في تلك الغربة، وقد فكرت ما هو القدر الذي أريد إيفائه من هذه الزيارة، فعندما قابلته في البصـــرة قال لي أنه لو ذهب إلى بغداد فإنه بالتأكيد سيذهب لكربلاء ليرى فضولي الذي كان يرغب في رؤيته بشكل كبير، وبعد فترة ذهب إلى بغداد دون أن يرى كربلاء وحبيبه فضــولي، وقد قدمت باحترام هذا الحرمان المؤلم لصـديقي إلى روح فضـولي وأنا في حضـرته، ولم يكن ألم وتأثر سـليمان نافذ بك بهذا المقدار فقط بل ربما كان أشد من هذا .

ويا للأسف فأنا أيضا لم أستطع رؤية فضولي كما رغبت ...

ظللت فترة في مرقده صـــامتا لأســـمع روحه المتألمة، وتخيلته بجســـده النحيف وملابســـه البســـيطة، ونظرته الحزينة المتفكرة، ووجهه الضـــعيف الذابل في هذا المأتم الأبدي لمدينة كربلاء، وتحدثت معه بالروح، وطلبت أن أبقى معه بمفردى المدة التي أرغب فيها، كانت حوائط الضـــريح تأن، وأرضـــيته مليئة بالتراب والأوحال، لقد رأيت العزلة التي عاش فيها فضـــولي طوال الســـنين في هذا المكان، وقلت في نفســـي آه لو أعيش هنا في هذا العالم الحزين بمشاعري الصادقة ولو ليومين فقط .

ولعدم وجود منتسبين للطريقة البكتاشية من العرب أو العجم حتى الآن فإن الشيخ **عبد المؤمن دده** جعل مشـيخة التكية منذ تأسـيسـها قبل خمسـمائة عام إما عن طريق التوارث أو الأقدمية إذا لم يكن هناك وارث، وبالنظر إلى أن كل الذين أحرزوا منصـب المشـيخة في هذه التكية كانوا من المشـايخ الأتراك الذين وفدوا من الديار الأخرى إلى التكية حتى أن الشيخ الحالي لها وهو الشيخ **عبد الحسين دده**، جده من أطنة، وبالتالي فإنه من الطبيعي جدا الحكم على فضـــولي بأنه تركي أو ربما كردي بالرغم من ولادته في مدينة الحلة .

ومعلوم أن الشـــيء الذي عوّد الشـــاعر على اللكنة الأعجمية([13]) لم يكن ســـوى التطبع بطرز الكتابة ولســـان الأدب الســـائد في ذلك العصـــر، الذي انغلق كلية على الأدب الإيراني وبالمحيط الذي تشـــكل في كربلاء بواســـطة الزوار القادمين والذاهبين لمشهد الحسين من إيران والهند وكل مكان على الدوام .

***

ولن أمر من هنا دون أن أتحدث عن هذا بما أن المناسبة قد جاءت :

---

[13] – يقصد اللغة التركية في لهجتها الآذرية .(م.ح)

لقد قام شخص من المنتسبين للتاريخ والأدب بتشبيه فضولي **بنسيمي**([14]) الذي كان موجودا قبل فضولي بقرن من الزمان، وعد الأخير مقلدا له، يقول نسيمي :

هاج البحر المحيط
وهاج اليوم والمكان
وأصبح واضحا أن هذه بداية الأزل
ليداهن الكثير من العارفين
لقد عرف النقاش من نقشه
وأصبح العيان كالياقوت الأحمر...

ولو أننا قرأنا ديوان نسيمي الذي بدأه بتلك القصيدة، فإننا لن نصادف – ولو حتى في قسم منه – تلك الأحاسيس الرقيقة للغاية المنقادة بتمامها لرقة المعنى وأصالة الأسلوب المزين بالألفاظ الموجودة عند فضولي، لقد كان نسيمي متصوف بحت، أما فضولي فكان شاعرا حقيقيا وصل لمرتبة العبقرية في الشعر .

ويقول نسيمي أيضا :

وجدت صورة الرحمن، صورة الرحمن لدي
عندي القرآن وحق الكلام الروح المطلق

وتلك الأبيات التي تأخذ أكثر من نصف غزليته ذات المطلع التالي :

أنا الظلمة وأنا المحيا وأنا الممات
وأنا نوح والنجاة للمؤمن والطوفان للكافر
أنا العلاج والطبيب والشفاء والعناء
أنا العلاج لكل الأسقام
أنا المصحف والحرف والكتاب وأنا الكلام والكليم

---

[14] – هو أحد أكبر شعراء المتصوفة في الأدب التركي الآذري، اسمه علي أو سيد على ، ومخلصه كما ورد في تذكرة لطيفي " نسيمي"، ولد في قصبة تدعى نسيم عام 1369م، انتسب في بادئ الأمر للشيخ الشبلي، ثم انتسب لفضل الله الحروفي مؤسس الطريقة الحروفية، توفي عام 1418م (http://www.hope-peace.de/aleviten/nesimi-t.htm).

أنا الناطق وأنا الكلام وأنا البرهان من الحق
أنا الساقي وأنا الشمع
والشراب والخمر والخمير
أنا السلسبيل وأنا العهد

والغرابة الصـــوفية الموجود بتلك الأبيات تجعلنا لا نتردد في أن نعدها من قبيل إطناب الكلام لأنه لم يشـــعر بها بأي رقة أو علوية، بخلاف أنها لا تظهر لنا رجلا كبيرا تربى على الحس الذوقي مثل فضولي .

إن **فضولي** يعد من أعاظم الفصحاء الذي وصل إلى درجة الحاكم المطلق للسان، فالمتانة والانتظام الموجود في نثره يدعو للحيرة، أما الشـــيخ **غالب** الذي أتي بعد فضولي بقرنين ونصف تقريبا فلم يكن صاحب أسلوب مثل فضولي، إذا ما استثنينا الإمالات التي كانت مخلة جدا بالتناغم، أظهر بعض الخوارق في مؤلفه الأكبر (حسن وعشق) إلا أنه لم يصل لدرجة فضولي قطعيا ، باعتبار أن الموضوع عنده أصبح حسي بحت، أما فضولي فنجد البكاء والأنين الموجود في منظوماته يعد شيئا خفيا، يعيش في المعنى المستتر كالروح المختلفة والوجود الآخر، ويجعل القارئ يعيش في حالة من اتحاد الحس الخالص والتناغم الشعري وكأنه يُرى في دموعه وأنينه .

لم يحلق فضولي إلى السموات مثل الشيخ غالب، ولم يستعن بعناصر الجمال الموجودة في الفضـــاء غير المتناهي للكائنات، فلم يكن عنده الوقت ليشـــتغل به، فهو دائما كان يبدوا وكأنه يبحث عن محاسن الأشياء التي في الأرض، والأشياء القريبة منه، فهو دائما يبكي على لون ربيعي يراه عندما ينظر حوله، أو يبكي على ليلة صـــحراوية حزينة، أو على جفاء هجران طيف الحبيب المحترق بالعشـــق وعبر خياله بمجموعة من الزهور، أو يبكي على دموع الروح، إن فضـــولي يجعل القارئ لأشـــعاره يعيش أعمق آلامه وإضطراباته التي تئن في القصيدة ويدفنها في نفس القصيدة أيضا، لقد ائتلف فضولي مع عناصر الجمال والحسن التي في الطبيعة فقط، ويعد هو المالك الوحيد لرقة الحس أكثر من رفعة الخيال، وعندما نفكر في محدودية الأشـــياء في نظر هذا الشاعر، وثراء التنوع الذي في كلماته نجد أن الأزهار النادرة التي نمّاها في حديقته الصغيرة ولم تكن موجودة في حدائق الملوك، والأساطير التي أخرجها كلها تعرض لنا

مدى المهارة والحذق المدهشة عند هذا الشاعر، لهذا لا يوجد عالم سوى الحسن الأزلي والجمال البشري المشتق منه، وفضولي بهذا النوع من الغرابة العلوية يعد –بالنسبة لي –معجزة .

ولو أنه كان موجودا في زماننا هذا، وكان واقفا على آداب الغرب لكان فضـــولي هو شاعر كل الدنيا، ولأصبح فضولي أكثر نشاطا من عبد الحق حامد، خاصة وأنه لم يفقد جمال حداثة وطراوة شـعره حتى آخر عمره، لأننا لم نسـتطع أن نفرق بين ما كتبه في صباه وما كتبه في شيخوخته من غزليات، وربما أصبح فضولي آخر متجول أكثر من **عبد الحق حامد** .

ولم يقلل فضـولي من مشـاعره حتى في قصـائده التوحيدية، بل كان يُلهم من الأشـياء التي يحبها ، يقول :

اللون الأحمر الجميل الكامل من قدرتك
وتناسب الأعضاء لذوي الوجوه القديمة لطف
ملاحة روح مثل الياقوت ولهجة لطيفة
وقد لطيف موزون ووجه مزين

وقد ألف مؤلفا كبيرا بكلمات علوية خاصة به من هذه المناجاة القصيرة :

يا من أعطيت النظام للكائنات
اترك الكأس فالثمل الحق للعشق
ولتعمر حانة العشق
وبعد ذلك كأس الغرور للعالم ....

وبعد أن قال :

يا من وجودك سبب في تقوية الشرع الشريف
فأنت الترياق للداء وسدادك معمار

في مدح حاكم بغداد، هرع إلى الجهات التي يحبها، ولم يمض دون قول تلك الأبيات التالية في إطار العشق :

الملائكة المكلفون بخدمتنا صفا صفا
ليل ونهار يصبحون على صورة الإنسان

فقد زينت عرصة الفلك بالوجوه القمرية

وبالرغم من أن الشيخ غالب يمتلك مهارة تلفت الانتباه باعتبار كونه (رمزيا) ، إلا أنني أرى بطئا شعريا في غزلياته، وخشونة قليلة في بعض تصويراته، والخلاصة أن العظمة المتواضعة والحزن الشاعرى مع عدم التكلف الموجود عند فضولي ليس موجود بهذا القدر عند الشيخ غالب – بالرغم من قرابة الموضوع في حسن وعشق وليلى نامه – لم يكن الشيخ غالب فياضا بهذا القدر مثل فضولي .

أقبل المساء، وعدت إلى التكية بعد أن تجولت مرة أخرى في السوق، كنت أشاهد الصحن الشريف من سطح التكية، وعندما دقت الساعة الكبيرة الثانية عشرة، ذهب الدده أفندي إلى باب الضريح بالمصباح الذي كان في يده، وتوقف هناك .

وأشعل ما يقرب من عشرين سيد الشموع التي في أيديهم من المصباح، ودخلوا الضريح يتقدمهم الدده أفندي، وذهبت أنا الآخر إلى الضريح مع أصدقائي، وانزويت في أحد الأركان، وامتلأ المكان بالجماعات، وبدأت الثريات تضيء تدريجيا، في تلك الأثناء بدأ المؤذنون يؤذنون لصلاة العشاء بعد ساعة وربع من الغروب كما هو معتاد على المذهب الشيعي، وبدأ صدى كلمة (الله أكبر) يتردد من كل مكان ومن كل فم من الداخل، كان كل شخص يردد الآذان، كانت الأصوات تهتز أثناء التهليل بكلمة الله أكبر .

حتى أنه كان يبدوا كالأنين الشديد لمئات البشر الذين تجمعوا، وأصبح القفص الفضي الذي يحيط بقبر الحسين لا يرى من شدة الزحام حوله، كانت كل الجماعات واقفة، كان أنينهم يزداد ويعلوا كلما مر الوقت، كانوا يبدون كالجبال والأمواج، وعندما صمت الذين رددوا الآذان، بدأت الأصوات تختفي و تقل تدريجيا حتى سكت الجميع كلية . ثم عم الصمت المكان بأكمله، كان سكون عميق للغاية ...

كانت المرآة الكبيرة المقعرة للقبة تبرق بآلافرع الذهبية، وعندما أضيئت الثريات تلألأت آلاف القطع البلورية الملصقة طبقات طبقات على الزوايا والأركان، وكانت أنوارها تنعكس على العيون، وارتدى المكان بأكمله ثوبا من النور المزركش اللطيف، وحينئذ أقيمت الصلاة .

***

وقد ذهبنا لزيارة ضـريح **الإمام العباس** أخو([15]) الإمام الحسـين بعد زيارة فضـولي هذا اليوم، كان ضريح العباس يبدوا وكأنه أحدث من قبر الحسين من الخارج، وقد زين بقطع القاشـاني والبللور والمذهبات، وإذا كان هناك شـيء في قبر العباس أكثر من قبر الحســـين فهو تلك الخناجر والأســـلحة المعلقة على زوايا القبر وأركانه من الداخل، وعندما سألت عن سبب هذا قالوا لي بأن الأكثرية يقدمون الأسلحة كهدايا للعباس .

وأثناء عودتي من هناك، لا أعرف لماذا جال بخاطري أن على أصغر أبناء الإمام الحسـين مدفون عند رأس الحسـين تحت نفس السـياج ونفس السـتار،لقد أثر في كثيرا رقود هذا الطفل الصـــغير الذي يبلغ من العمر عامين أو ثلاث، ومات ولم تكن له أي علاقة بهذه الدنيا الجافية، لقد أحببته كثيرا في مخيلتي، وتخيلت بأنني أقدم له الحلوى، ولكني لم أطلب من أي شــخص معرفة هل كان هذا الطفل موجود أثناء واقعة كربلاء، وهل بقى بلا ماء أم لا .لم يكن قلبي راضٍ عن هذه الدرجة من حرمة الفجائع البشرية .

***

[15] – **هكذا في الأصل .**

العودة

ودعنا كربلاء قبيل الظهيرة .

وحتى أوفر قدرا من الراحة الراحة لرأســـي المفعم بهذا القدر من المشـــاهدات والأحاسيس، أقنعت أصدقائي بفكرة البقاء تلك الليلة في **(المسيب)** .

عدنا من الطريق الذي أتينا منه، ووصـلنا المسـيب وقت العشـاء، ونزلنا هناك في منزل الدده أفندي، كان الهواء ساخنا لكنه رطب للغاية .

وكانت الحركة مسـتمرة في سـوق القرية السـاعة الحادية عشـرة والنصـف، كانت حركة بسيطة ولكنها في تناغم تام ...

كانت الغرفة مفروشـة بالأرائك، وبها موقد([16]) نحاسـي ممتلئ بالنار، وفي الخارج كان يوجد الذين يطهون الطعام، ويعدون القهوة .

وقد أتي لغرفتنا للزيارة تاجر بغدادي من جيران الدده، كنا نتحدث معه ونحن ندخن السيجارة، كان الرجل لطيفا ويفهم في أصول التعامل أكثر من اللازم .

---

[16] – إناء من النحاس مخصـص لإشـعال الفحم وغيره، وكثيرا ما يسـتخدم عند العرب في صـنع القهوة .

وعند العشـــاء أزيح الموقد إلى جانب ، وفرشـــت المائدة، وأكلنا طعامنا بالخبز الساخن، وقد سمعنا من النافذة أصوات القوافل التي تمر بأصوات الأجراس، ولم تكن هذه ســـوى قوافل الزوار الذاهبة من بغداد إلى كربلاء، هذا الحال الذي لا يمكن رؤيته أو سماعه في أي مكان آخر خاص بالشرق أو بالعراق، أو على الأدق خاص بطريق كربلاء....

وبعد ساعة كان ثلاثة من الأصدقاء يشغلون ثلاثة أضلاع من الغرفة، سحب كل واحدا منهم عبائته على رأســـه وغاص في عالم وحدته، فقمت أنا الآخر بخفض ضوء المصباح الموجود على الحائط واسترخيت ، ولكن الصوت الذي كان ينبعث من الشارع لم يمكني من النوم، فبالرغم من أن المكان الذي أرقد فيه مريح لم أستطع النوم، بعد فترة انقطع الصوت وسكن كل شيء، واستولت تلك الليالي التي تدعوا الكائنات إلى عالم يحكمه السكون على في أحد أركان الغرفة، وفكرت في أن هذا لن يستطيع أن يؤثر على وكان يراودني شعور في نفسي بأن أبقى بلا نوم، وتعطشت لإيجاد لذة ترضيني بشرط أن أجد الدافع الذي يجعلني بلا نوم في تلك الليلة .

وتهيأ لي هذا بعد فترة قصـــيرة مصـــادفة، فقد بدأ بلبل بالتغريد في إحدى حدائق النخيل المهجورة التي تمتد صـــوب الصـــحراء من خلف المنزل، كان ســـماعه جميلا لدرجة لا يمكنني وصـــفها، وقلت في نفســـي يا ترى على ما يبحث هذا البلبل في هذا الليل البهيم وحيدا تحت جنح الظلام ؟ ..

ظل هذا الصدى– الذي يهتز من بعيد بالنغمات التي تجعل الإنسان يغوص في التفكير– يداعبني لفترة طويلة بشـــكل حزين وغريب، ولســـت أعرف في أي مرة من صياحه كان يذكرني بفضولي، انتبهت للشعر الحزين لهذين العالمين، ووجدت علاقة خيالية غريبة بينهما، البلبل، البلبل .

إن عملي هو الأنين في الليل حتى الصباح
ومهما أعطوا فأنا شاكر، ومهما أبقوا فأنا مسرور

***

كنت أريد البقاء فترة أخرى في هذه الديار التي تسرق ليس الأحاسيس فحسب بل وآلافكار أيضـــا، بالتأثيرات الأليمة المتهيجة دائما في النســـيم الحار للشـــرق، لقد كان

التأثير جد غريب، كانت مشـاعري وأحاسـيسـي وكأنها تريد أن تفهمني أن كربلاء في كل الأحوال تحتوي على شعر قديم لوجود مشـهد الحسين بها، فلم تكن الوقعة أسـاسـا بمحض الصدفة في إعداد هذا النشيد الحزين .

وقد اسـتغربت كثيرا من الخطاب القليل الممتلئ بالشـجون والألم لفضـولي عن الحسين، وأنه لم يستطيع أن يقدم قصائد عن الحسين ذلك البطل الروحي لواقعة كربلاء الشـهيرة بالرغم من أنه قضـى عمره كله في أحد أركان ضـريح الحسين، واكتفى بكتابة مرثية عامة عنه في آخر كتاب المسـمى (**حديقة السـعداء**)، لكني فكرت أنه بالرغم من فقره وحرمانه– أي فضـولي– إلا أنه كان يشـبه المريض الراقد البائس، وأن حياته الأدبية مرت منغلقة في عالمه، وأن العشـق الذي سـقط على كاهله كان كالحظ السـيئ الذي قصد روحه، ولم أتردد في قول إن روحا كهذه لن تشعر بأي مشاعر أخرى، ولن تستطيع الكتابة بالتأكيد، فيوجد في بعض الأماكن في قصائده :

لي رجاء من فيض الدولة
قوة النطق في اللسان، والروح في البدن
لا سيما من أوصاف أولاد على
فمدح أولاد على يستوجب الغفران

وقال بعد ذلك :

أصبحت كل واحدة من زهور الأرجوان
الموجودة في حديقة الورد لسانا
يمدح على المرتضى كل وقت
ويظهر الصبا أثرا من الخلق الحسن على
حديقة الورد ولن يضيع العمر اللطيف
ويخلص بهذا المرقد المزين لخير النساء
ويظهر الكفن الدموي، والمئة قطعة من
الوجه أصبحت كزهور الخزامى
ويعود فيمسك بطرف الحديقة
والغزو من أجل الشهيد

وبخلاف تلك المقطوعات التي لم تكن براقة، يوجد له مجموعة منظومات من المحتمل أنها لأهل البيت، وعلى هذا الحال يمكن حصر قصائد فضولي في النعت النبوي ومدح سلاطين عصره، وكان توفيقه في النعوت النبوية أكثر من القصائد الأخرى، التي لم يستطع أن يقضي على السطحية فيها فأظهر في المدائح والنعوت النبوية كماله الشعري، حتى أنه اعترف بهذا بنفسه وقال :

يا فضولي لا تطلب مني أشعار المدح والذم

فأنا عاشق وكل كلامي عن العشق

إن سكوت فضولي الروحي والحسي بخصوص شهداء كربلاء يستلزم أن يكون نتيجة لتصوف عميق للغاية مجرد عن كل القيود .

ويرى هذا النوع من التصوف بشكل أكثر بريقا بالتصويرات المنتظمة للغاية لحافظ على سبيل المثال، أما عند فضولي فنجد ألم الابتلاء الذي يعانيه والصراخ الحقيقي المنبعث من روحه في ذلك العشق الصوفي المضطرب للغاية، نجده محسوسا، واشتغاله بالتكية مع فقره الأكثر من تصوفه .

عاش فضولي في عالم من العشق الطاغي،و شعر الحب السامي للغاية، وألبس أدبه زيا مزينا للغاية مع شدة الغرام والرقة، ونجح بشكل كبير في ابتداع قصائده اللطيفة الحساسة، وإن لم يكن هكذا لما عاش قبل أربعة قرون في صحراء مثل العراق وتزوج هنا، وحتى يمكننا إدراك مكانته بين عظماء العالم يجب أن ندرك مدى قدرته واستعداده لأن يكون متجولا .

وبصرف النظر عن أن كتابه المسمى (**حديقة السعداء**) هو عبارة عن ترجمة لكتاب **روضة الشهداء** الذي كتبه **حسين الواعظ** باللغة الفارسية، فهو كتاب يتحدث عن بعض الأنبياء العظام ومناقب أهل البيت الكرام، فضلا عن أنه يتحدث عن حادثة كربلاء .

وحتى لو كان هذا الكتاب في غاية تمامه وكماله، إلا أن مقصدي هنا هو القول بأن فضولي لم ينظم القصائد أو المرثيات من أجل شهداء كربلاء ولم يكتب كتابا عن شاعريته، ولعل السبب في ذلك بلا شك هو عدم كونه شيعيا، وأنه لم يتصور الواقعة بالمشاعر الخاصة لهذا المذهب، وقدم فضولي جهوده التي بذلها في هذا الطريق –

ونتيجته غير مأمولة – لعالم غير محدود من العشــق و الحرية، كما أن الشــهرة التي اكتســبها بين الأمم بحكايته (**مجنون ليلى**) والتي انتقلت لكل لغات الشــرق' لم تكن ســببا في التعريف به فحســب ، بل عملت على اتخاذه مكانته اللائقة بين الشــعراء العظماء .

إن فضــولي الذي ودع القرون التالية بخارقة حزينة وجمال لا نظير له بحكايته مجنون ليلى، إنما هو في نظري أكبر شعراء الترك القدامى .

زيارة المدينة

أعتقد أن رحلتي الجميلة والهامة للغاية هذه لم يعتر الخلل طبيعتها الأصلية لأنني كتبتها بأصدق المشاعر عقب انتهائها مباشرة من الخواطر اليومية التي كنت أسجلها في دفتري اليومي .

الأحد 21 ابريل 1328

ركبت القطار الذي يتحرك صوب الجنوب من منطقة (**قطرانة**) لخط سكك حديد الحجاز، وكانت رحلتي هذه غاية في الأهمية بالنســبة لي لأنها كانت نتيجة لرغبة شديدة تراودني منذ سنوات، لقد كانت هذه الرحلة مهمة بالنسبة لي لما فيها من الذهاب إلى المدينة المنورة التي تشــكل الغاية والهدف ومبدأ ونهاية هذا الخط الحديدي ورؤية هذه القطعة المهمة التي تمتد لألف كيلومتر، وكذا زيارة النبي صــلى الله عليه وســلم قلب الفضائل البشرية والإنسانية سلطان الكرة الأرضية على الدوام في المحيا والممات .

حقيقة لقد شعرت بعد تحركنا من محطة القطار بسعادة في قلبي وسمو غريب في روحي، وقد جعلني هذا الحال أشعر بسعادة غامرة مجردة عن كل شيء، كانت تقربني من الراحة التي أشــعر بها وأنا أؤدي هذه الوظيفة المهمة في رحلتي التي أحببتها كثيرا .

لقد كانت زيارتي هذه من قبيل الاحتياج الضروري لرجل متأزم يريد أن يستنشق هواءا نقيا، وأستطيع أن أقول أنني كنت في حاجة لتلك الرحلة معنويا لكي أجد التسلية لروحي التي دفنت في دياجير الظلام ولعيوني الدامعة التي سئمت وملّت من رؤية قبائح الجهل والرياء والفساد والغفلة والتظاهر الذي يجلب الأذى للوجدان في كل مكان وفي كل وقت، كنت أحتاج لهذه الرحلة ولو لأيام معدودة لكي أنسى كل آلامي واضطراباتي عند كوثر الحق ومنبع العدل في أطهر وأشرف مكان .

وقد فهمت بالتجربة أن القلوب الخربة والأرواح المضطربة تجد نشوة الراحة هنا، وكما أن معنويات البشر تبدأ من هنا، فإنها أيضا تصل إلى الوجود الحقيقى الواصل للعرش الإلهي .

كان القطار يتهادى مسرورا منقادا في الصحارى، كانت رمال الصحارى والأحجار الخضراء والحمراء والزرقاء والبنفسجية والوردية والصخور ذات اللون الأسود، والجبال العارية التي تشبه الأطلس البراق الذي له لون البندق، وكذا الأطلال الطبيعية المصنوعة من القطع المنحوتة تدريجيا لجبال **(تلول)** غريبة الشكل والتي توحى في النفس بأنها هياكل ضخمة إذا ما شوهدت في الليل، كانت كل تلك المناظر تخلق تأثيرا محيرا وتلفت الأنظار، ويجب توصية كل شخص وكل مقتدر بضرورة زيارة تلك الأقاليم الغريبة التي تظهر بالترتيب، الصحاري والحرارة والخلاء المخيف، لأن المكان هنا ليس به غش أو تزييف لأي شيء قط، لأن كل شيء هنا حتى ولو كان مثقال ذرة إنما يمثل حقيقة ووجود أصيل، ووجود مجرد بعظمة، كل شيء هنا إنما يمثل جوهرا .

وعندما كان القطار يتوقف في المحطات يأتي الجنود، ويخرج رجال ذوي سمات وقورة شامخة ، ذوي جلود محترقة، ألوانها نحاسية أحرقتها الشمس الحارة، كان هؤلاء هم أفراد طابور الإنشاء والمحافظة على الخط الحديدي، يمكن مشاهدتهم عند كل محطة وعند كل مخفر في شكل مجموعات ، أجسادهم تلفت الانتباه، أذرعهم قوية ، ووجوههم جادة، كانوا يداومون على العمل والإنشاءات في كل محطة، كل شخص منهم سعيد، كل بندقية نظيفة ومزيتة، وكان يسمع في كل جبل النداء الخفي يعلوا في الأعالي (الله اكبر)، وكان بالقطار عالم يشرح الحديث الشريف (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وبينما كان اثنان من الهنود ينشدون المدائح ، كان ثمانية

أشـخاص من العرب والأتراك يسـتمعون إليهم، وهذا هندي آخر يجلب لي الشـاي بكل محبة وبكمال الاعتناء، كان واضـــحا أن هذه المناطق كأنها بلدتنا تماما، وهذا يعني حقيقة أنه بقدر ما كنا نقترب من منبع العدل، نشـــعر وكأننا في بلادنا ،ويتلاشـــى الشعور بالغربة .

كلما كنا نقترب من مشــرق الإســلام كانت ماهية كل شــيء تتخذ شــكلا أكثر وضوحا في لونها الأصلي، أما قوة البخار التي تعد أول تنفس في حياة الحضارة، فهي تبرهن لنا بقوة أكثر وضــوحا وبلســان حق أكثر بلاغة، أن لها قوة مختلفة أحكمت بها على هذا الإقليم الواســـع، كانت الإبل تقطع هذا البحر من الرمال ســـابقا في أربعين يوما، ولكن بفضل قوة البخار هذه أصبح القطار يقطعها طائرا في أربعين ساعة فقط .
الاثنين 22 ابريل 1328

سـار قطارنا طوال الليل، ولأنني نمت مبكرا اسـتيقظت قبل شـروق الشـمس، كانت كل النواحي في جمال حزين وعظمة تملأ الأفق ، كان المشــرق هنا يبعث على النفس شعروا خياليا حتى في تلك البادية الموحشة التي لا تظهر شيئا سوى الجزر العارية من الأحجار والتي ترتفع وتخرج من بين بحور الرمال التي لا نهاية لها، ولا يوجد شـــيء ســواها، في نفس الوقت الذي كانت الحوريات المتســترة بالســحب الوردية تطير في آلافق وآلافلاك .

بعد فترة قصـيرة وصـلنا إلى **تبوك**، ولاحظنا أن آثار العمران هناك بدأت تدب في الجهات الأربعة بخطى متتابعة ومنتظمة، تناولنا طعام آلافطار هناك ثم نهضنا .

كان الحر يزداد بمرور الوقت، وكان البريق الشديد للشمس الذي يصطدم بالعين، ولمعان القطع الحجرية البنفســجية والخضــراء والحمراء التي تبرق مثل الزجاج الملون تظهر في ســكون عظيم وثقل مخيف لصــحاري الأقاليم الحارة التي لا ملجأ فيها و لا طاقة بها، وكان واضح – بلسان الحال – أننا نسير على نار بدلا من الرمال، ونتنفس اللهب بدلا من الهواء، ولكن غرابة التشكيلات الأرضية لم تكن من المناظر التي يشبع منها النظر، وذلك لأن الغرابة التي في الأشــكال والأوضــاع كانت تفوق بكثير الأنواع التي يمكن تصورها .

كانت الجبال المتكسرة، والهضاب المتسلسلة المنفصلة عن بعضها البعض بممرات طويلة وضيقة والصخور المنحوتة المجوفة، والمغارات والأطلال الطبيعية بأشكالها المختلفة، وأكوام الحجارة السوداء المتجمعة وكأنها أكوام من الفحم، كل تلك الأشياء جعلت مسار خط السكة الحديد يسير متعرجا، وكان هناك هضبة كبيرة تبدو أعلى من كل الجبال الواقعة بتلك الصحراء تسمى اصطبل عنترة، أيقظت في مخيلتي كل الحكايات العجيبة لهذا البطل عنتر .

وعندما يتوقف القطار في المحطات كانت النسمة الخفيفة التي نشعر بها أثناء سير القطار تنقطع، وكنا نشعر بحرارة شديدة، ومع هذا كان يوجد مجموعة من الجنود يعملون بجد ونشاط، ربما أنهم مشغولون بعمل إصلاحات تبعد عن هذا المكان بعشرة كيلومترات وبجوارهم طاقم جنود الأمن، كانوا يحترقون تحت نيران هذه الحرارة التي لا ترحم، ولكنهم موجودون بسيماهم المتعالية وفي أيديهم البنادق .

وكل المحطات عموما عبارة عن أبنية متينة مستحكمة، بها الصهاريج، أما المحطات هنا يوجد أعلى كل واحدة منها غرفتين، الأولى للضابط، والأخرى لموظفى التلغراف، وتقوم قطارات البضائع المعينة بتوزيع لوازم وتعيينات كل محطة بشكل منتظم، كانت عربة البضائع التي تشبه الدكان المتجول الكبير المغطى تسير يومين وهى تحمل كل شيء ،بداية من المأكولات وحتى الإبرة والدخان والخيط والسكر .

والقطار الذي كنا نركبه كان به عربتين للدواب، كانت توزع الخراف الصغيرة على المحطات العسكرية، وثمة شيء كان يلفت الانتباه أكثر من ذلك وهو العديد من أدوات خط السكة الحديد التي بدأ في نقلها إلى المدينة المنورة، فقد كان سيتم البدء في إنشاء خط حديدي بين الحرمين .

وكان بالقطار صديق هندي كان يكرمني بتقديم الشاي لي أربع أو خمس مرات في اليوم بوجهه البشوش ويديه النظيفتين، وأكوابه البراقة، وعندما كنت أرده كان يومئ برأسه بحزن ويبدأ في التوسل لي بأن أخذ منه الشاي، وأنا أيضا كنت أقابله الإكرام بتقديم القهوة والبرتقال له، وقد كان يشعر بسعادة بالغة عندما أقدم له الماء للوضوء في كل وقت، كان يوجد بالقطار جو عائلي، وإخلاص يليق بعلو شأن مآثر الكمالات الكبيرة وكأننا نستعد لهذا المكان الطاهر الذي سنذهب إليه .

أقبل المساء وكنت أشعر بسعادة بالغة كلما جن الليل، وذلك لأنني كنت سأصل إلى المدينة المنورة قبل الظهر من اليوم التالي، وقد وصلنا مدائن صالح بعد الغروب، وقد أصبح هذا المكان كالقصبة الجديدة العامرة بمصنع إصلاح خط السكك الحديدية، ومخزن الماكينات، ومنازل العمال، والجنود والموظفين، ومحلات الملتزمين، سرنا بعد توقف دام طويلا في هذا المكان، وقد غصت في نوم عميق ناسيا كل شيء تحت النجوم البراقة في هذه السماء الصافية .

الثلاثاء 23 ابريل 1328

صباح مشرق جميل، وصول ....

يا له من صباح مشرق بهيج لقربه وتوجهه الشديد إلى ذلك النور الأبدي الأزلي الذي أراد الشيخ غالب أن يخبرنا به عندما قال (لولا ذلك النور ما خلقت تلك المخلوقات)، تلك العلوية التي كانت مسيطرة على خيالي ومشاعري من أولها إلى آخرها قد ارتقت إلى أعلى درجات الأدب التي يمكن الوصول إليها، هذه العلوية اليوم تشغل ذهني لأقصى درجة، وبدأت أراجع وأنا غير صابر الجدول الذي معي لأرى كم بقى من المحطات على وصولنا، كانت سعادتى تزيد كلما كانت الساعات تقل، لأنني عندما أصل إلى هناك سأكون في حضرة سيد الكونين .

وكان التفكر في السيرة الجليلة للنبي صلى الله عليه وسلم – خير من عرف الله في صورة بعيدة عن أي شكل من أشكال التأويل – يسليني، وذلك لأن السيرة النبوية العطرة من أولها إلى آخرها إنما هى كتاب للحكمة والعدل والمناقب العلوية، و هى عبرة ودعوة للحقيقة .

لأن بها معان و مشاعر غاية في الرقي ، وأمن وأمان ينبعثان من الحديث الشريف (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، ومادية ستصل إلى الغاية السنية لإيجاد السعادة، والوجود الأبدي الذي أخبر به النبي عن الحق تبارك وتعالى، لقد كان يوجد هنا بالنسبة لي سر يسمو بكل الخصال الإنسانية ؛ فيصنع أمة عظيمة، ذات خلق عظيم ، وشهامة كبرى، وصبر وتوكل لا ينفذ، وعزم وثبات لا ينهدم، وقناعة وحمد لا ينضب ، وحمية لا تفتر .

وكل تلك الأشـياء نابعة من الفيض المبارك والروح الجليلة للنبي صـلى الله عليه وسلم .

وبالتأكيد سـيوجد من بين قارئي كلماتي هذه الذين لا يؤمنون بالله وبرسـوله، وهم بالتأكيد سـيقرءونها وتعلوا وجوههم ابتسـامة سـخرية من تحت شـواربهم، أو سـيقرءونها بنظرات غاضبة من تحت حواجبهم المتشعبة، وأنا أيضا سأرمقهم بتكبر خاص مع ثقة بالنفس، إضـافة إلى نفس تلك النظرة المسـتهزئة التي سـينظرون بها إلى تلك الكلمات، لأنني مضـطر لأن أجتنب آلافراط والتفريط، وأن أرعى العدل والإنصـاف، لأنني مؤمن بهذا الدين و بشـعائره ، وأحترم معتقداتنا الحقة الراسـخة، وأرتبط به بروابط أقوى مما يظنون .

ومع هذا فإن الأشـخاص الذين لا دين لهم جديرون بالترحم، فقد رأيت فيهم الذين يبدون مظهرا حضـاريا مزيفا للغاية بسـبب إلحادهم البحت بالرغم من كل دهائهم وعلمهم، فهم لا يعرفون أسس أصول المعاشرة والتعايش، فيسيئون للنبي صاحب الشأن بهجومهم على المعتقدات الوجدانية أمام هذا وذاك، فهؤلاء غير قابلين للإصـلاح، ويوجد أيضا من بينهم الذين يقللون من شأن مؤلفاتهم بهذا القبح .

كنا نقترب من المدينة المنورة وبدأ كل منا في جمع متعلقاته وأغراضـه، وضـبط الطربوش الذي على رأسـه ليتهيأ للنزول، وكنت قد تجهزت قبل ذلك، فكنت أتحرى رؤية المدينة من نافذة القطار قبل لحظة أو أخرى، وبعد قليل ظهر من أحد النوافذ التي على اليسار جبل ضخم ذو رأس واحدة قالوا أنه جبل أحد، وبعد أن سرنا ما يزيد على ربع ساعة بدأنا نرى بعض أشجار النخيل وثلاثة أو أربعة قبور ناصعة البياض تقف وحيدة في بعض الأماكن من تلك الصحراء النظيفة ذات اللون الأصفر الوردي .

وبينما كنت أشاهد حدائق النخيل الموجودة حول جبل أحد، ظهرت أمامي المدينة المنورة بلونها الأبيض البراق ونظافتها الكبيرة ممتدة بشـكل جميل في الصـحراء بدون أي عوائق أمامها، كانت تلفت الانتباه بشـكلها الظريف ولونها الأبيض الجذاب، ثم ظهر الحرم الشريف بمآذنه البسيطة ولكنها علوية، ويتوسطها القبة الخضراء التي بدت كدرة خضـراء لا يمكن رؤية ما يماثلها في العالم كله، وكم كان جميلا هذا المنظر المبهج للقبة الخضراء التي أوجدت تناغما لونيا غريبا مع السماء والمآذن البيضاء .

وكانت رقة الامتزاج بين السـماء الزرقاء والقبة الخضـراء لطيفة وبديعة للغاية، وكانت روحي التي تصورتها داخل تلك القبة الخضراء تشعر بأن كل معاني الإنسانية والوجدان والعقل موجودة هنا، وصـلت إلى المحطة ولم يغب عن عيني ولو للحظة واحدة هذا الجمال اللافت للنظر، فكنت أنظر إلى هذا الحسـن الذي يسـري حتى إلى مرقد النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان صـديقي العزيز الشيخ ... ([17])ينتظرني عند المحطة ومعه عدة أشـخاص، فقد كنت أخبرته بالتلغراف بتحركي قبل ذلك، وقد أسـرع لمقابلتي بلحيته البيضـاء وناصيته البهيجة المباركة النقية دائما والمتفتحة ضد كل حوادث الدهر التي هي العدو الأول للرجولة والشـهامة والوجدان الصـافي النقي، وبمجرد أن توقف القطار نزلت منه، وكانت مصافحتي للشيخ حارة أدهشت الموجودين حولنا، ركبنا العربات ودخلنا المدينة، وذهبنا إلى مقر إقامتنا القريب من الحرم، دخلت قاعة مفروشـة نظيفة للغاية ورطبة، لم يكن يفصـل بين هذا المنزل والحرم الشريف سوى شارع واحد، وقد أمسكني الشيخ من يدي ودخلت الحرم من باب الرحمة .

وعندما توجهت إلى القبلة بالحرم الشـريف توقفت مع دليلي أمام نافذة الناحية الرئيسية لغرفة السعادة المحاطة بدائرة ومطلية بلون أخضر، وقفنا وكررنا السلام ونحن في حالة من الأحاسـيس المضـطربة، وتضـرعنا ودعونا، ويقف المرقد المكرم النبوي مسـجى بسـترة وردية منسـوج عليها بالخطوط الجميلة من كل ناحية (لا إله إلا الله محمد رسـول الله)، ويرقد بجواره تحت نفس السـترة في سـعادة أبدية أبو بكر الصـديق صـاحب الرسول في الغار، وعمر الفاروق حافظ العدل المحمدي، أما نحن فكنا نشكل تضادا قبيحا أمامهم بأخطائنا الجاهلية، وذنوبنا وإفراطنا وتفريطنا .

وقد قلت من داخلي بمشاعر الشكوى .

" إن الأمة التي اجتهدت في إرشـادها وصـلت اليوم إلى حالة من التخبط يجعلها لا تسـتطيع أن تعرف أين تضـرب رأسـها، معرفتهم ناقصـة، فكرهم متخلف، قوتهم

---

[17] – فراغ في الأصل .

الأساسية مفقودة، جرأتهم منكسرة تماما، والتواجد بهذا الوضع سيجعلنا وكأننا محكوم علينا بالسحق تحت الأقدام، ماذا سنكون بهذا السلوك ؟ "

صمت ....صمت ....

ولكنني كنت أسمع تلك الكلمات في دعاء رجل بدا عليه من رأسه أنه هندي أو أفغاني، كان يقول " يا إلهي أيقظ قلوبنا بحرمة النبي المحترم الذي أخبرنا بسعادة الدارين، ولتجعلنا مقتدرين على إدراك حكمة العرفان، وسلحنا بالشيم العلوية للنبي الكريم، وأحسن علينا بالانتباه من الغفلة ، ولتجعلنا جديرين بكسب صفات الصدق والكرم والغيرة والصبر والعدل والاعتدال " .

عندما سمعت هذا الدعاء شعرت بأنني تجمدت، لدرجة أنه لو مسني أحد الأشخاص لسقطت بلا شك، لأن كل العيوب التي فعلناها باسم الدين والأمة كانت تصفعني على وجهي كلما تذكرت واحدة منها تدريجيا .

تجولت حول حجرة السعادة عدة مرات، وجلست في ناحية الروضة المطهرة، واستمعت لنفسي، وفهمت أننا نسور تأكل نعش الأزمنة السالفة، كنت أشعر بالضيق كلما فكرت في ذلك، لقد خجلت من الرسول صلى الله عليه وسلم، كنت بمثابة الغريب هنا باعتباري المسئول في الوقت الحالي عن قوم رأوا الجفاء والحرمان بكل أنواع المتع منذ أن استقررنا على عرش بيزنطة، وهم الآن يعيشون في خيال اعتاد على الجفاء والحرمان .

عدت إلى المنزل خائر القوى كالمريض، كنت أشعر بالضيق من تصغيري لأحاسيسي، ولكن لأن نكران الحقيقة سيعد أثرا آخر للجهل فإن نصيبي ونصيب الآخرين الحالي لن يكون شيئا سوى التبرؤ والعودة صاغرين هكذا من هذا المقام الجليل بوجوهنا السوداء، وقد استنتجت بعض الأشياء طبقا لوجداني من زيارتي هذه اليوم، وهى أن ذهني قد تعلق بالمناظر المتفرقة والمتناقضة التي لم أستطع التفريق جيدا بين الأغراض الخاصة والحمية الجاهلية لعصرنا الحالي، فقد اعتراني الخجل مرة أخرى، والثلاث كلمات الشريفة للنبي صلى الله عليه وسلم التي تدعوا إلى ضرورة الإتحاد وهى (مالي أراكم عزين) أي متفرقين، وجال بخاطري الكلام النبوي الذي

يعني " ليس منا من دعا إلى التفرقة " من الأقوام والأشخاص الذين سيأتون بعد ذلك، كنت سأبكي ....

ثم بعد ذلك تذكرت أن النبي سيد البشر الذي تربى يتيما في صحاري مكة قبل 1350 عام كان قد أمر أتباعه بتقدير المقام العالي لدرجات المدنية ، و التي نفهمها اليوم بمفهوم قاصر ، خجلت كثيرا من هذا الفكر الذي جال بخاطري عدة مرات في حضرة النبي، وحزنت وتفكرت في الأحاديث النبوية الشريفة التي تعني (حق على أدب الرجل أن يرد على الرسالة المرسلة إليه مثل حق رد السلام) وكذا (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، والكريم من يعامل النساء بلطف وكرم، والبخيل من يعاملهن بالإهانة)، وتصورت تلك الدرجات العاليات والنظام الأخلاقي الذي أهمله كثير ممن يدعون المدنية في الوقت الحاضر، وأحسست بشوق واحتياج إلى تلك الضرورة الحضارية المهمة الغائبة عنا في الوقت الحاضر وهى دقة أداء العمل التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)، وأدركت أننا في الوقت الحالي لم نفهم مقصد النبي صلى الله عليه وسلم .

لكم كان هذا الحكم ثقيلا وأليما، لأن الناس غير معصومين عن الخطأ، والله تعالى في غنى عن هدي أو ضلال الكائنات، والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم بدنا وروحا من الضلالات، وليتفكر الذين في شتى البقاع ، لا سيما وأن النبي لم يطلب شيئا من أحد قط، فقد منح شرف الاستغناء الإنساني .

***

كانت القاعة التي أجلس فيها جميلة للغاية، فهي عبارة عن بهو مستطيل عبارة عن أربع حوائط، بارتفاع 15 مترا تقريبا، وتستمد الضوء من نافذة علوية في منتصف السقف لها أستار من القماش تفتحان إلى الشرق والغرب، أما القسم الأوسط الذي يدخل إليه من الباب وكذا الأقسام التي على الجانبين فهي مرتفعة قليلا، وقد فرشت الجوانب الموازية للحائط بالأرائك المغطاة بمفارش بيضاء، وكان هذا البهو يمتلىء بالعلماء والأشخاص المباركين الذين تعرفت عليهم حديثا، وكانوا يقضون أوقات فراغهم فيها يتناقشون ويتسامرون حتى أنهم كانوا على علم جيد بأمور الغرب، وكنت أسعد

كثيرا من مصاحبتهم، وكنت أدخل إلى سريرى المعد في القاعة وأنام مثل البدوي الحر الذي ينام في الصحاري، وقد ذكرت قبل ذلك التشبه بالبدو، والصحراء – طبقا لتجربتي – تجلب متعة ألم خاصة بعالم الصحراء ؛ لأنها توقظ في الإنسان الخيال الطلق والحس المتجرد، وتجمع الفكر مع القلب، وعلى هذا فالإنسان مضطر لأن يتعرف على كيانه في الصحراء ، ويتعارف مع وحدته وأن يتحدث مع هذا العالم الصامت الساكن، ويدرك الإنسان أن الصحراء هي التي تشعره بوجوده وأنه سيعيش في كل مكان وفي كل عدم ، ومن ثم لا تجعله يفرق بين الجبال والأشجار، وقد أدرك الإنجليز الذين جابوا العالم هذه الحقيقة قبلنا بكثير ، وبشكل أفضل منا .

الأربعاء 24 ابريل 1328

كانت القاعة مظلمة، ولكن المؤذن في المئذنة القريبة جدا مني كان ينادي على الصلاة بصوته العذب (الصلاة خير من النوم)، نهضت وتوضأت، كانت تتملكني حالة روحية وكأن يد قدسية ترعاني .

توجهت إلى الحرم الشريف، وكان يتملكني صفاء قلبي جردني من كل آلامي واضطراباتي، كان الحرم الشريف مضاءا بالقناديل والثريات والألوان الكهربائية وكأنه محل صفاء القلب، جمع حوله أبنائه بكل كرمه ورقته ، بكل وقاره وعظمته، وكانت الخيالات التي تمر أمام عيني أثناء الصلاة لمجاهدي طرابلس وبنغازي تشكلها حالة جذب صوفية ،كحالهم الرفيع بالقدر الذي يجعل السموات تغبطهم على ما هم فيه، فقد كانوا ذوي قدر عال مثل النجوم التي في السماء، وذوي أرواح بقدر أهل الحقيقة الموجودين على الأرض، لقد دعوت لهم أكثر مما دعوت لنفسي وأبنائي، لأننا ... لأننا لم نفعل شيئا أما هم فقد فعلوا كل شيء .

ولم تكن أوقات سعادتي كثيرة، فأحيانا لا تستمر، ففي نفس الوقت الذي أتقلب فيه بين الرجل المؤمن القوي الإيمان وبين الرجل الوحشي وأحيانا المجاهد ، وذلك بحسب اختلاف الأحاسيس، ثم أجدني غارقا في دوامة التساؤلات أترنح ما بين شك ويقين ، وأبتلى باستمرار بالانقلابات الخيالية .

ولم أستطع معرفة سبب هذا في الوقت الحالي، ولكني يمكنني القول بأن تلك الأحاسيس ما هي إلا تحولات أصابتني نتيجة لأعمال القوم الذين انتسب إليهم .

لكم هو قوي جدا أن يكون الشـــخص خياليا بدون حيرة . إن الســـعي خلف الرغبات ، والتوافق مع الخيالات والأوهام ، مع نسيان التنبيهات الصريحة التي أوضحها لنا النبي الحكيم بألف نصيحة وتحذيره لنا شتى المهالك وكأننا أولاده، ... ونسيان ذلك كله إنما هو سقوط مخيف في هوة عميقة ....

أصبحت في حالة من الفتور ولم أستطع أن أتمالك نفسي، كما أنني لم تكن لدي الاستطاعة لتفهيم هذه الأحاسيس لتلك الجماعة المغرورة من ذلك المجتمع البشري، وبعد أداء صـــلاة الصـــبح ظللت جالســا حتي مشـرق الشـمس في الروضـــة المطهرة المتصلة بقبر النبي في الحرم الشريف، ولقد داخلني سرور عظيم لأنني نسيت نفسي هنا في هذا المكان، وعشـــت في هذا العالم المتجرد، لأن كل القلوب المريضـــة تمنح النشاط هنا، وكل الأحاسيس المغبرة تمنح الصفاء هنا .

***

والحرم الشريف تم تجديده في عهد السلطان **عبد المجيد خان**([18])،وهو الآن ملئ بالأعمدة الضخمة التي تحمل القباب الصغيرة التي تحيط بالمسجد من زواياه الأربعة.

والقباب من الداخل ملونة بالنقوش المصنوعة من الطلاء المائي الخالي تماما من التكلف والصنعة والذي رسم على طلاء أبيض عادي، ولا يوجد في الحرم الشريف أي زينة أو تكلف، أما غرفة النبوة فهي القبر الفسيح الذي يشـغل الربع الثالث من الجامع والذي يتجه إلى الأمام من ناحية اليسار بالجامع، وقد فُصل بين الجامع والقبر النبوي بحاجز حديدي أخضـر اللون مصـنوع من الحديد المجدول، وبذلك يكون المرقد المكرم حرا من جهاته الأربع في مكان مخصـــوص من الجامع محاط ما حوله ، أما النافذة الموجودة في القسم العلوي فصنعت من الفضة .

---

[18] – هو الســـلطان عبد المجيد ابن الســـلطان محمود الثاني، والدته هي الســـيدة بزم عالم والده ســـلطان، ولد عام 1822م، وتوفي عام 1861م، جلس على عرش الدولة العثمانية وعمره 16 عاما، أعلن فرمان التنظيمات الشهير عام 1839م، وفي عهده حدثت إصلاحات وتطورات كبيرة في الدولة العثمانية، فقد دخلت الســـكك الحديدية وخطوط التلغراف والســـفن البخارية وغيرها الدولة العثمانية، له جامع باســـمه في اســـتانبول، توفي = =وهو في ريعان شـــبابه حيث كان عمره عند وفاته 38 سنة . ((. Osmanli Padisahlari, s. irfan Atagun, c.3, s 27

وقد دفن النبي صلى الله عليه وسلم في القسم الأمامي من هذا القبر المستطيل الشكل، ومعه أبو بكر وعمر مدفونان جنبا إلى جنب، وخلفهم يوجد فاصل مصنوع من الحديد حيث يوجد قبر السيدة فاطمة الزهراء في القسم الذي له مدخلين من اليمين واليسار، ويكون الدخول إلى الغرفة النبوية من الباب الأيسر من هذين البابين، ثم يلف الزائر فيدخل إلى قبر الرسول من الباب الأيمن للفاصل، وهذا يعني أن الداخل إلى المرقد النبوي يدخل من يمين المرقد النبوي ثم بعد ذلك يلف من الناحية الرئيسية ثم الناحية اليسرى، وعندما يخرج من المخرج الثاني للفاصل يكون بذلك على يسار قبر السيدة فاطمة الزهراء، أي أنه يصل إلى الباب الذي دخل منه أول مرة .

عدت من الحرم الشريف فوجدت صديقي الشيخ قد أعد طعام آلافطار والشاي الأخضر وينتظرني، بعد ذلك خرجت مع دليلي الشيخ صالح حيث ذهبنا إلى السوق وتجولنا حتى وقت الظهيرة، وكان يوجد في السوق حانوت صغير في القسم الذي ينتهي عند باب السلام للحرم قالوا لي إن هذا الحانوت هو حانوت أبو بكر الصديق، لكم كان جميلا وصغيرا، كان الحانوت ينقسم إلى قسمين داخلي وخارجي؛ الداخلي كان به محراب صغير، وهذا يعني أن هذا القسم كان للآخرة أما القسم الخارجي فكان للدنيا، وبعد أن تجولنا في السوق ذهبنا إلى مدرسة المحمودية المتصلة بنوافذ المكتبة المطلة على الحرم الشريف، وكان هدفي من تلك الزيارة للمدرسة هو زيارة المدرس المحترم عثمان حلمي أفندي، وقد أجاب علينا خادم المدرسة قائلا إن المدرس في الدرس، فخرجت من المدرسة، وقلت لنعود إلى المدرسة بعد ساعتين أو ثلاث .

وبعد أن أديت صلاتي الظهر والعصر في المسجد النبوي قمت بزيارة شيخه زيور بك، وعندما وجدت نفسي في معية هذا الشخص المبارك الذي يجد نفسه مسرور بخدمة النبي فخر الكائنات ، ظننت نفسي اليوم مع أبي الذي تدمع عيني من فرط محبتي واشتياقي إليه، قابلني **زيور بك** بوجه باسم بشوش، وقال لي سنتقابل في صلاة العشاء، وتحدث معي عن الجمال والكرم النبوي .

وقد خرجت من الحرم الشريف من الباب المسمى الباب المجيدي وسرت إلى سوق آخر لأشترى ساعة لي بدلا من ساعتي التي تعطلت أثناء دخولي إلى المدينة، كان يوجد بالسوق الكثير من بائعي الخضار والفاكهة، ورأيت إلى الأمام حانوتا يبيع

كل شيء بداية من المسبحات وحتى الطرابيش والمناديل والخرز الصغير، فذهبت إلى هناك، كان صاحبه ذا وجه شاحب وشوارب دقيقة ولحية خفيفة، وقد فهمت من هيئته أنه من بخاري، وقد رأيت في الزجاج الموجود أمام الحانوت ســـاعات مغطاة بالمعدن الأبيض والأسود .

سألته قائلا (هل هذه الساعات جيدة؟) فأجاب لا إنها لا تعمل جيدا، تعجبت لما قال وظننته يمزح، فقلت له إن كل بائع يمدح بضـــاعته حتي يبيعها فلماذا تقول ذلك ؟ فقال إنني أقول الصـــدق، لقد كانت ســـمة الصـــدق الجميلة تظهر في هذا الحانوت الصغير، أخذت ساعة من الساعات وسألته عن سعرها فأجاب سعرها مع عُلاقتّها الخاصة بها مجيدية ونصف، فأخذت مسبحة أيضا وأعطيته ليرة ليفكها، فلم يكن عنده من الفكة ما يكفي فذهب إلى حانوت جاره وعاد وفي يده عدة عملات مجيدية، وكانت أول كلمة يقولها لي وهو يبتسم ابتسامة طفولية :

" لقد أخطأت القول في حساب الساعة، إنها ليست بمجيدية ونصف، بل سعرها خمسة وعشرون قرشا " لقد أحببت هذا الرجل أكثر من أخي، لقد كانت الشيم العلوية الصافية التي في صدق واستغناء هذا التاجر تنفذ إلى الروح بشكل كبير .

عدت إلى البيت لأقضـــي به الوقت حتى الغروب، وقد أعد الشـــيخ صـــاحب المنزل الملابس الخاصة اللازمة للدخول للحجرة النبوية هذا المساء بناء على دعوة وإذن شيخ الحرم، فقد أحضـــر جبة واســـعة من القماش الفاخر ونطاق أبيض، وطربوش أبيض ملفوف عليه عمامة بيضاء .

وقبل الغروب بنصف ساعة توجهنا إلى الحرم الشريف، وجلسنا في المقصورة التي تطل على الزاوية التي على يســـار الباب الجانبي لحجرة الســـعادة، وكانت توجد بجوارها غرفة أخرى كان يعد بها الشمعدانات، كما كانت توجد مقصورة أخرى واسعة خاصة بالأغوات المكلفين بالخدمة النبوية، وكان هذا القسم يطل على القسم الثاني من حجرة السعادة أي يطل على ناحية قدم السيدة فاطمة .

وبينما كنا نجلس في المقصـــورة أتى شـــيخ الحرم، وارتدى جبته البيضـــاء، وربط نطاقه، وارتديت أنا أيضـــا، وبينما كنا نقف جميعا على شكل نصف دائرة، دعا شيخ الفراشين –وكما هو معتاد – للدين والدولة والأمة وخاصة السلطان .

بعد ذلك قام أحد الأغوات بالذهاب إلى باب حجرة السعادة وعلى كتفه سلسلة من الفضة معلق بها مفتاحان كبيران صنعت حوافهم من الفضة أيضا .

وأعطي الشمعدانين الكبيرين اللذين أخرجا من الغرفة لشيخ الحرم ووكيله الأغا، كما أعطيت الطست الفضية التي يوضع فيها مباخر العنبر الذي يوقد لمدير الخزينة .

كنت أنا وثلاثة من العلماء خلف تلك المجموعة، وفتح الأغا المنتظر عند الباب الأقفال الفضية، وبينما كنا ندخل إلى المقام العالي بالترتيب، أشعل شمعة رقيقة، وقد أعطى لكل واحد منا شمعة صغيرة في اليد اليمنى، وأعطوا لكل واحد أيضا علبة كبير من المعدن الأصفر تحت الشمعة وذلك حتى لا تتساقط قطرات الشمع المحترق على الأرض ، وعندما دخلنا من الباب أشعلنا شموعنا الصغيرة من الشمعدان الأول الموجود بجوار مرقد السيدة فاطمة، سرنا في صمت تام من عند ناحية قدم السيدة فاطمة على الأرضية اللامعة المصنوعة من خشب الجوز، وقمنا بالالتفاف حول حجرة السعادة حتى دخلنا الحجرة نفسها، وحينئذ أنزل الأغوات من أيديهم القناديل البراقة النظيفة ذات السلاسل الطويلة الظريفة بالخطافات التي في أيديهم، وقد أشعلنا شموعنا، وبعد أداء تلك الخدمة تجمعنا جميعا في نقطة واحدة متجهين إلى ناحية رأس المرقد النبوي، وقام شيخ الفراشين بالصلاة والسلام على النبي بصوت رقيق عذب، وسلم بتواضع واحترام على الذوات الجليلة ، الخليفتين المكرمين بقربهم من النبي، وسرنا إلى اليسار . وبمجرد الخروج من باب الفاصل الموجود هناك نكون أمام قبر السيدة فاطمة، توقفنا هناك .

دعونا لبنت النبي وسيدة النساء، وخرجنا من الباب الذي دخلنا منه أول مرة . وخلعنا جببنا ووقفنا لصلاة المغرب .

كنت سعيدا للغاية، لأنني شعرت بالفخر من داخلي عندما فكرت بأنني كنت داخل حجرة السعادة في حضرة أعظم وأجل كل عظماء البشر، فخر الكائنات الذي هو السيد والحاكم جليل الشأن، ولكن لماذا أعاتب نفسي بهذه التعبيرات، فلا يمكن أن يصوغ أصح وأصدق مشاعر تلك الوجدانيات شيء من كلماتنا وتعبيراتنا .

***

والحركة الدائمة لآلاف الجماعات التي تزيد وتقل كل يوم بدءا من الفجر وحتى بعد صلاة العشاء بساعتين أو ثلاث ساعات تعرض نوعا من الترابط اللافت للانتباه وتواضع ساكن غريب لا يرى في أي مكان آخر، كانت تتجمع هنا موجات من الجماعات المختلفة القادمة من كل ركن من أركان هذا العالم المحمدي الفسيح بداية من الهنود وآلافغان وحتى أهالي مصر وتركستان وبخارى وبغداد والجزائر وفاس وروسيا وزنجبار .

ويوجد بين هؤلاء ، الفقراء والمحتاجين والأيتام، وكلهم يرتدون اللباس الأبيض النظيف للغاية، وعلى رؤوسهم العمامات البيضاء أو الكوفيات، تجدهم واقفين في صفوف بوجوههم السمحة المباركة ولحاهم البيضاء يتعبدون بصدق وإخلاص وكأنهم شباب، لباسهم غاية في التواضع مصنوع من القماش القطن الذي يساوي عشرون أو ثلاثون قرشا، كما يوجد بينهم العارفون بحق بالآداب والفلسفة، والواقفون بشكل جيد على الأحوال والسياسة الحالية وعلى شؤون الغرب، وهؤلاء دائما ما يقرئون المطبوعات العربية بشكل منتظم بعد الدرس والعبادة إذا ما سنحت لهم الفرصة لذلك، إنها القوى المعنوية المجهولة بالنسبة لنا، ولم يمنعنا من التعرف على تلك العناصر المباركة المؤثرة سوى جهلنا وأفكارنا السياسية المنغلقة على مكان واحد، كما أنهم يظلون مجهولين بالنسبة لنا لأنهم لم يشرحوا لنا أوضاعهم أو لأنهم لم يريدوا أن يقللوا من شأنهم أمامنا، إنهم أشخاص مشهورون باستغنائهم التام الخاص بفضائل الأخلاق التي لم تتولد سوى من قضاء أعمارهم في الروضة المطهرة بعد إكمال دراستهم ومطالعتهم، ويتعيشون في الشهر الواحد بمائة وخمسين قرشا .

وإذا لم نبحث عنهم نحن فإنهم من شدة حيائهم لن يتقربوا لنا، إنهم أصفياء الإسلام الذين يلزم في حقهم أن يكونوا ملهمي أرباب الجهد والهمة من الإداريين ذوي الوجود السياسي والتأثيرات الكبيرة في العوالم المتحضرة لأمريكا وأوروبا، فهم أكثر إخلاصا ونقاءا ، وأكثر تفوقا وإثمارا باعتبار النتيجة ، ويوجد بينهم في الوقت الحالي الذي يرغب والذي لا يرغب ، والمعتكف والقنوع، لأن معظم الطوائف الاجتماعية الدينية التي ينتسبون إليها لا يدركون قدر أنفسهم ولا قدر ما لديهم من

إمكانات ، ولا يســـتخدمون منهج الإســـلام لينقذهم من مرض الجهل، ويظنون– في تعصب أعمى –أن عالمهم هو كل شيء.

ولا تنفتح أيدي كل تلك العناصــر المختلفة التي اجتمعت على جناح الحرم الشــريف، إلا للسـماء، تلك الأيدي التي ربما تتشـاجر في مكان آخر غير الحرم، في هذا المكان تعرف القلوب المتشـــاحنة كيف تجامل بعضـــها البعض، وكيف تتحاب، وتتحدث هنا الألسن التي لا تفهم بعضها البعض بالإلهام القرآني .

هنا في هذا المكان تســـلم العيون على بعضـــها عندما تنظر إلى المرقد النبوي الجليل، تلك العيون التي لا تعرف بعضها بعضا .

وعندما دخلت إلى الحرم الشريف من الباب المسمى الباب المجيدي لأداء صـلاة العشاء جلست في المكان المكشوف الواقع وسط الحرم وهو المكان غير المغطى بقبة وبه نســمات ليالي الصــيف، وهذا المكان الأوســط عبارة عن فضــاء فســيح مفروش بالرمال الرقيقة النظيفة، ويوجد هنا لكل شخص سواء كان فقيرا أم غنيا سجادة للصلاة، ويجلس الأشــخاص في محاذاة الصــف ينتظرون الصــلاة في راحة، ويقوم الســقاءون باســتمرار بتقديم المياه لهم بســخاء وإكرام، وإذا ما أعطيت لهم النقود يأخذونها، وإذا لم تعطيهم لا ينتظرونها ويكرمون حتى أفقر الموجودين .

ومياه النبع المعروف **ب (العين الزرقاء)** بالمدينة تدعوا للحيرة والدهشـــة . فهذا الماء الذي يتمتع بعذوبة فائقة مما يدفع إلي شـربه في الصـباح والمسـاء أثناء الطعام وبعده بقليل أي في كل وقت وحين, لا يضــر احتســائه بكميات كبيرة بمناســبة وغير مناسـبة بالنظام الهضـمي, هذا بالإضـافة إلي أنه في الأيام الحارة يصـبح كما لو أنه إكسير رائع للذوق والبهجة.

وعقب الصــلاة عدت إلي مقر إقامتي وعقدنا في غرفتي جلســة ودية جدا بل هي في رأيي جلسة تاريخية . وبدأنا نقرأ الصحف المصرية والسورية التي جاءت مع البريد في ذلك اليوم. وبينما كنا نتحدث ونتجاذب أطراف الحديث بشـأن أحوالنا الراهنة انضـم إلي مجلسـنا هذا شـيخ من العلماء العرب. ولم نسـتطع أن نقدم لهذا الشـيخ أي شــئ كواجب ضيافة لأنه كان لا يحتسي لا القهوة ولا الشاي ولا حتى يدخن السجائر. وبينما

كنا نعاين الصـــحف إذا به يتدخل في حوارنا هذا الذي ألقي علي مســـامعه بعض الكلمات والمسائل الملفتة للنظر.

وفيما بعد انتقل الحديث إلي فرنسا. فتحدث هذا الشيخ عن ثروة فرنسا وذكر كذلك أنها أفضـــل خبير زراعي في العالم وأن شـــعبها من أكثر شـــعوب العالم ثراءا ثم ربط كلامه بالمغرب. وأعرب عن يأســه بشــأن المغرب وفصــل آرائه في ذلك. وأثناء حديثه عن مدي دقة وانتظام السياسة الخارجية لفرنسا قال:

"لقد كان الحظ حليف الفرنســـيين لما ســـلكوا منهجا علميا معتدلا فنجت بذلك حكوماتهم من الإخفاقات الســـريعة, وقويت بذلك شـــوكتهم....". فأعطانا محاضـــرة مختصرة ومحددة ثم خرج وأنصرف. فلما سألت عنه: فقالوا لي أنه عالم طاهر وصديق لطيف وأديب فقير، فأخذت مني الحيرة مأخذها...

وبعد قليل انفض مجلســنا, ونمت في ســريري نوما هادئا ما هو إلا نوم مســلم مرتاح السريرة، صـادق، باله خال تماما من أي أفكار مشـوشـة أو مضـطربة وهو نوم لم أنعم به منذ أن كنت طفلا صغيرا.

***

الخميس25 أبريل 1328هـ :

وها هو وقت الفجر قد حان ويُنَادَي المســلمون من فوق المئذنة بقول (الصـــلاة خير من النوم). لقد كان صدي هذه الدعوة بمثابة النداء الحماسي الذي يعلن عن آذان الصبح أكثر من غيره وكأنه نابع من قلب بلال الحبشـي رضـي الله عنه مؤذن وعاشـق النبوة.

فتوضأت وخرجت من المنزل إلي الحرم الشريف مباشرة. وكان العالم لا يزال يلقي عن كاهله عباءة النوم وكان يبزغ من ناحية الشـــرق ضـــوء خافت يصـــاحبه ســـكون ملكوتي. وفي هذه الأثناء فكرت لسـبب أو لآخر في كيفية عبادة المسـلمين. ففي رأيي أنه لا يمكن أن يكون هناك شـئ طبيعي أكثر من هذا. ونظرا لأن الصـلاة أحد أركان الإسـلام الخمسـة فهي ليست توسـلا ولا نذرا ولا نتيجة ندم ولا طلب، ولا يمكن أن تكون أي واحدة من تلك الأشياء.

فهي علي الإطلاق عبادة وتعبد. ولا دخل في هذا للآمال ولا للصـــياح ولا للاعترافات ولا حتى لأهداف معينة, كما أنها ليست مراجعة أو لجوءًا مخصوصاً. شرعت لحكمة ألا وهي عدم حرمان الجسد الإنساني ومظهره الخارجي من الإحساس بشعور العبودية الكائن في العالم الداخلي للقلب والقيام –من خلال الصلات بينهما– بتقوية كل الروابط بينهما تلك الروابط الموجودة في توحيد آلافعال، وكذلك ســعي كل من الروح والجســد معا لتوخي الأشياء السيئة والحذر منها. فتكون بذلك النتيجة هي الشكر والعبودية ولا شئ غيرهما. وكما أنه لا ينبغي هنا أن يخطر بالبال أي إقبال منتظر أو أي أمل معين فإنه يكون من قبيل العبث أيضا الإقدام علي ستر العيوب بنفس الصورة.

إن التماس طريق الحق واجب علي كل عقل سليم

والله تعالي يهدي من يشاء

نعم, إنه من قبيل الجهل البين أن يفكر المرء ويقول أنا أُصـــلي الآن فلماذا لا يتحقق لي كل ما طلبته و كل ما دعوت من أجله. وذلك لأنه لا يمكن محاســبة الله تعالي بهذا الشكل, كما أن المصلي الذي يقدم علي المساومة منتظرا شيئا معينا لا يكون سوي طماع. فالعبادة حينئذ تخرج من حالة الواجب وتأخذ شكل غرض خاص وهذا بالطبع ليس بالشـــئ المقبول. كما أن فكر كهذا من شـــأنه أن ينال بالنقص من رفعة وعلو العبودية المجردة .

ولقد كان الحرم الشـــريف في هذا الوقت المبكر جدا من الصـــباح ممتلىء عن آخره. أُديت صـــــلاة الفجر بإمام حنفي. وبعد أن مكثت مدة ذهبت إلي الحجرة النبوية وتوقفت أمام المرقد الكريم الذي لا يُثنى عليه إلا بكل مشـاعر السـعادة والسـرور. وأخذت أمعن النظر في القادمين وكذلك الواقفين والمصطفين للصلاة الواحد تلو الأخر. وتضـــاءلت في عيني كل أنواع الرغبات والأمنيات. وكان كافيا لي ذلك المنظر الرائع الذي استمر في انقياد تام وخشوع وتسليم كاملين. وفي الحقيقة إن الإنسان كان يشعر علي الفور أن الصـــوت الذي يخرج عاليا بعض الشـــئ هو من قبيل مخالفة آداب الاحترام الواجب مراعاتها هنا. لذلك فالإنســـان عندما يتوجه إلي هذا المكان الذي تسيطر عليه كل مقتضيات وضروريات العظمة والإجلال كان أول إحساس يتبادر إليه يتمثل في الصـمت أو التحدث بصـوت خفيض, والاحترام ، وعدم المقدرة علي الأمر

والنهي، وعدم المقدرة علي اعتراض أدني فقير، وإيجاد مكان مفضـل والجلوس فيه بكل أدب، والأكثر من هذا كله الاحترام....الاحترام.

***

عدت إلي البيت وعقب تناولي لطعام آلافطار ذهبت بالعربة لزيارة حمزة –رضوان الله عليه – عم الرسـول الكريم. فخرجنا من باب القلعة وأخذنا نتقدم في سـيرنا صـوب المكان الذي يوجد به جبل أحد وكنا نمر من أكثر أجزاء المدينة حداثة فلقد مررنا من أمام نزل كبير إلي حد ما وبعض المباني الحديثة البناء.لكن لم يكن هناك طريق ممهد لهذه المسـافة التي تبلغ من ثلاثة إلي أربعة كيلو مترات وتتكدس فيها معظم أشـجار النخيل بالمدينة هذا بالإضـافة إلي أنها تكون في موسـم الحج ممرا ومزارا لألوف مؤلفة من الحجيج من يعلم كم ألفا يكونون. ولم نتمكن ونحن في العربة من مشـاهدة أرجاء المكان من حولنا وذلك بسبب اهتزازات العربة الشديدة.

كان المكان هناك عبارة عن بلدة صـغيرة بها مسـجد **حمزة** – رضـوان الله عليه – وضـريحه ونبع مياه قريب منه وعدد كبير من المنازل وحدائق مزروعة بالخضـروات والبرسيم .

عدنا إلي المدينة وفي هذه المرة أسـرعنا مباشـرة إلي زيارة آل البيت. وكان هذا المدفن المتصل بالمدينة والمحاط من حوله بالجدران يضم بين جنباته بعض الأضرحة هذا بالإضافة إلي قبر أبناء الرسول الذكور وزوجاته الطاهرات، وقبر عثمان – رضوان الله عليه – وبعض أقارب النبي خاتم الرسـل الكرام ،وقبر السـيدة **(حليمة السـعدية)** مرضـعة خير الأنام عالي الشأن محمد بن عبد الله. وتمكنا من مشاهدة كل هذه القبور والأضرحة. وبذلك نكون زرنا قبور وأضرحة أعرق وأعظم وأنبل عائلة في الدنيا بأسرها.

ولما رجعنا من هنالك حرصـنا علي التواجد في الحرم الشـريف وقت الظهر وبعد ذلك ذهبنا إلي **(قباء)** التي تقع علي مسافة زمنية تبلغ نصف ساعة بالسيارة. ولم يكن هنا أيضا طريق. ووصلنا إلي هذه الأماكن التي تشتهر بأهمية تاريخية ومعنوية ونحن نتمايل في أراض جبلية وعرة وأدغال كثيفة. وذهبت هناك إلي ذلك المسـجد الذي قيل في حقه(مسـجد أسـس علي التقوى) وأخذت أعاين باهتمام بالغ منبره و محرابه وبنائه.

ويتمتع بناء أول مسجد في الإسلام بصلابة شديدة كما يكسوه نوع من الوقار خاص به وبساطته المادية تضفي عليه عظمة تاريخية لا تبوح بشئ سوي الصمت والسكون.

وقمنا بالسير في الشارع الذي يمتد بجوار المسجد وتوجهنا صوب الجهة الخلفية. وهنالك كانت توجد منازل مشيدة بأحجار بسيطة وصغيرة ترجع إلي عصر السعادة وهذه المنازل أصبحت الآن في حالة خربة تقريبا ؛حيث لم يتبقى منها شئ سوي الأطلال. ولقد أثر في هذا الخراب وهذه الوحشة القاتلة بشكل كبير. وكانت هناك شكوى خفية وحالة من الاعتزاز والترفع كلها سكون وحزن في هذا المنظر الذي يقول بأن المجد الإسلامي قد أوشك على الانهيار مادام قد صار حاله هكذا.

فبينما ينبغي الحفاظ علي كل هذه الآثار والذكريات الجديرة بالاحترام التي خلفها عظماء وأخيار هذه الدنيا بأسرها ، الذين عمروا تلك الأماكن في عصر النبوة ؛ وذلك بحمايتها في براويز وإطارات من حديد وإحكام الأقفال عليها، إذا بها تُترَك في حالة مزرية حتى أصبحت كما لو أنها مكان قذر مهجور ، الأمر الذي من شأنه أن يؤلم ويؤنب الضمير بشكل حقيقي. فها هي البيوت التي تخص عائشة رضوان الله عليها، وها هي أيضا الأماكن التي كان يجتمع ويتشاور فيها الصحابة الكرام وهم مقدمون علي الغزو،وها الغرفة الخاصة بالسيدة عائشة ، كلها أماكن ترزح تحت طيات النسيان وعدم العناية والاهتمام بأي شكل من الأشكال. وعلي كل فإن هذه الأماكن المهمة كانت ستصبح خزينة فخر وعز لكل من تاريخنا وأخلاقنا. وإذا ما قام مسلم ينظر حوله ويتسائل ماذا يوجد اليوم من هذه المفاخر التي زلزلت الأرض من تحت أعظم القصور السلطانية في يوم من الأيام في عصر السعادة الذي كان يعتبر بداية عظمة ومآثر التاريخ الإسلامي، فأذا عرضنا علي هذا المسلم هذه الخرابات فالأمر يقتضي أن يكون هذا المسلم جماد ، وأن يكون متبلد الأحاسيس والمشاعر...

وإنني لأتساءل هل من سبيل للخروج من تلك الغفلة التي خلفت في معنوياتنا شعورا بالغيظ؟ حيث إنه لم يبق بمقدورنا اليوم التعلل بأي حجج أو أعذار، فنحن حتى الآن لم نبد الاستعداد الكافي لنستخلص النتائج المحتملة من خلال إمعان النظر –ولو بشكل قليل – في كيفية سير الأحداث.وأيضا لأنه لا توجد جامعة إسلامية أخري غيرنا تحافظ علي استقلالها.

والعلماء الذين ذكرتهم ووصـــفتهم قبل قليل هم المهاجرون الذين وقعت أوطانهم تحت يد الأجانب. أولا هم غير ملمين بأحوال العالم؛ لكن بعدما احتل الإنجليز مصـر مؤخراً ؛ أحيا السوريون الطباعة والصحافة في مصر، وبدأت الصحف تتعدد وتنتشر باللغة العربية. فأحس المســاكين من العلماء التونســيين والجزائريين من الغرباء عن أوطانهم والفضـلاء الهنود بحاجة لقراءة كل هذا باهتمام بالغ. فأصبحوا ملمين بسياسة العالم ومدركين لها.فهم في العصر السابق كما كان الحال عندنا لم يكلفوا أنفسهم عناء القراءة ولو ليوم واحد ، واستمروا علي ذلك الحال لمدة ثلاثين عاما. فعلماء اليوم ليسوا كمن سبقوهم، مما ترتب عليه أن خرجت بلادهم وأوطانهم من تحت سيطرتهم.

ولتنظروا بأي شكل ومن أي جهة تكون لدي هؤلاء معرفة وإلمام بالسياسة وبعالم الماديات. والآن ســيصــبح الهدف إما تقدير أو مؤاخذة علماء الشــرق أو لومهم فقط باعتبار الوضع الراهن .

وإن كل الحكومات الإســـلامية تقريبا بدءا من حكومة فاس وحتى حكومتنا قد ضـيعت اسـتقلالها إما بشـكل جزئي أو كلي وعلي هذا فقد ضـيعوا من أيديهم إمكانية السعي والعمل بقوة الحرية من أجل أوطانهم وأديانهم. وإن السياسة أيضا تعتبر مفقودة في المكان الذي لا وجود للحرية فيه.

وهكذا عدت في حالة بائســـة من (**قباء**). وفي الأماكن التي تجولت بها كنت مشغولا بهذه آلافكار والتصورات. وقبل أذان المغرب بنصف ساعة ذهبت إلي مقصورة حضـرة شـيخ الحرم. وكنت أتصـور أنني إذا أظهرت الحاجة للمسـاعدة سـأتمكن من دخول حجرة السعادة. وبعد عدة دقائق جاءوا واستقبلوني باهتمام بالغ. فارتديت كسوتي ودخلت في معيتهم إلى مقام السعادة.

وحينما عدت إلي المنزل علمت أن مدرس أفندي قد قام بدعوتي لحضـور مراسـم قراءة المولد الذي يُقرأ مرة كل عام بشــكل اعتيادي في المدرســة المحمودية وذلك غدا بعد صــلاة الجمعة. وعقب تناول الطعام لم أســتطع الجلوس لما كنت أشــعر به من حمي فاضـطررت النوم علي أن أقوم بعد ذلك أي بعد منتصـف الليل لصـلاة العشـاء. وهكذا قضيت الليلة وأنا محموم.

***

الجمعة 26 أبريل 1328هـ :

دخلت الحرم الشريف وأنا أشاهد مولد وابتسام أول ضياء للفجر. ووجدت موقعا متميزاً في الروضة المطهرة فانزويت بجوار أحد الأركان. وأخذت أهيم في عالم الخيال وأنا أغوص في مشاهدة الجماعة التي تنتظر وقت الصلاة وهي في حالة من السكون التام. وشاهدت (**عثمان حلمي أفندي**) مدرس المدرسة المحمودية بين بعض الواقفين علي أقدامهم مستقبلين حجرة السعادة عقب أداء صلاتهم. وإن هذا المنظر –لأولئك الذين يؤدون مراسم الاحترام بالتوجه من قريب أو من بعيد– يُري باستمرار داخل الحرم.

وكان أهم شئ بالنسبة لي في هذا اليوم أن أتمكن من إيجاد مكان قريب من المنبر وأن أسمع خطبة صلاة الجمعة بشكل جيد. فقلت لدليلي (**الشيخ صالح أفندي**)؛ فتعهد أن يحجز مكان مسبقا وذلك لأن الذهاب مبكرا لن يكون كافيا للحصول علي مكان. فقمت بالذهاب بعد أن تجولت في السوق بعض الشئ. فجلست في مكان قريب من المنبر تقريبا في الصف الأول بجوار القاضي أفندي. وكان الحرم الشريف ممتلئا بداية من عند المنبر وحتى الأبواب والأركان، والصفوف مكتظة بالجهة الخلفية التي هي أكثر اتساعا. وكان هذا العالم بمثابة المحشر الذي يهرول الناس إليه لسماع الحقيقة. وكان الناس يتوافدون بشكل دائم ومستمر. ورفع المؤذنون الآذان. وبعد أداء ركعتي السنة وصل إلي المنبر الخطيب الشافعي **الشيخ زاهد** الذي كان يسير عقب من أمامه ليفسح له الطريق وكان يرتدي عمامة بيضاء علي رأسه, وطيلسانه من القطيفة البنفسجية اللون وجبته واسعة وكان يضع علي كتفه شالا لاهوريا. ورفع آذان الجمعة وبدأت الخطبة.

ولا يمكن علي الإطلاق أن يكون هناك قلب لم يشعر بحب عميق ولم يفهم لغة وخطبة هذا الخطيب الذي لم يتوقف قط ولو للحظة واحدة ولا يكرر أي شئ كما أنه لم تكن هناك ركاكة في خطبته التي أخذ يرفع فيها صوته بطلاقة علي نحو تدريجي و مستوي . وبدأت الخطبة تنهمر وتتدفق كما لو أنها شلال سماوي. وكان الحضور – وهم يُدعون للنهل من الروحانيات النبوية – يجلسون في صمت رهيب ، وكأن على رؤسهم الطير. وحينما كان هذا الخطيب يتحدث عن الأحاديث النبوية كان يلتفت برأسه إلي حجرة السعادة وهو يقول (هذا النبي الكريم) يريد بذلك أن يوضح للإنسان

أين يوجد وعند من صـــلي. وكان الحضـــور في هذه الأثناء يثنون علي النبي الأكرم ويصـلون عليه صـلي الله عليه وسـلم. والبلاغة هي أكثر ما من شـأنه أن يلفت النظر في اللغة العربية التي تعتبر لسان الحق والسحر البياني الرفيع.

وعقب ختام الصـلاة توجهت إلي المدرسـة المحمودية. ولقد اتخذوا من مكتبة دار العلم هذه مكانا لتقام فيه مراسمهم، تلك المكتبة التي تحوي بين جنباتها ستة آلاف كتابا مجلدا ، لذلك ذهبت إلي تلك المكتبة. فالتقيت هنالك بحضـــرة شـــيخ الحرم والمفتين وبعض الشـخصـيات من الشـرفاء وبعض العلماء الآخرين. وكانت هذه المكتبة علي درجة رفيعة من النظافة والانتظام. فلم يكن فيها علي الإطلاق أي نقص أو حتى غبار أو أي شائبة علي الأرض ولو بمقدار ضئيل بدءا من السجاد ومراتب الجلوس وانتهاءا بزجاج الخزانات الزجاجية التي تســـتر الجدران. وبعد ســـماع أخبار ولادة خير الأنام تناولنا الطعام علي مائدة أُقيمت بوسط هذه المكتبة.

وعقب هذا بدأت مشـاهدة الكتب. وعندما رغبت في تناول بعضـها جاء إلي شـيخ طاعن في السـن مقوس الظهر بشـوش الوجه بمفاتيحه في يده. فتحدث إليّ هذا الشـيخ بلطف ووجه مبتســم وقال لي "ســأريك نوادر قيمة كل واحدة منها بمثابة مكتبة". وفتح أحد الخذانات، وأخرج من هنا مثنويا ومن هنالك أحد التفاســير؛ وفي ناحية أخري وجد ديوانا. وكانت كل نســـخة من هذه النســـخ– التي كانت عبارة عن مخطوطات عتيقة ورائعة– بمثابة درر يتيمة. فبعض منها كان مختوما بالختم الســـلطاني للســـلطان (**محمود العدلي**)([19]) وأحيانا أخري كان يوقع ببعض الكلمات التي يكتبها بخط يده هو. وكانت هذه الأشياء عبارة عن مجلدات نفيسة من مكتبته الخاصة وأهداها للمدرسة عندما تم إنشاؤها؛ وكان عددها يتجاوز المائة مجلد. وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث مع قيّم الكتب؛ وهذا الرجل الكامل يري أنه لا يوجد هناك مكان آخر أفضـــل من هذه المكتبة ولا رفيق آخر مخلص مثل هذه الكتب. وفي هذه المدرســـة الخاصـــة بســـت

---

[19] – هو السـلطان محمود خان الثاني ابن السـلطان عبد الحميد الأول، والدته هي السـيدة نقش ديل والده سلطان، ولد عام 1758م، وتوفي عام 1839حدثت في عهده الحرب العثمانية الروسية، وآخر حرب بين العثمانيين والإيرانيين،. (S. irfan Atagun ,a.g.e , s 15) .

وثلاثين طالب ذات القاعات القليلة كان يوجد كل شـيء من شـأنه أن يحقق تحصـيلا علميا مريحا وهادئا.

وبعد أن خرجت من هذا المكان الجميل قمت بأداء صـــلاة العصـــر وعقب ذلك قمت بزيارة المدرس في نزله. فلحيته البيضـاء ونظراته الهادئة ، كل هذه الأشياء كانت تضـفي رقة وعذوبة علي وجه هذا العالم الكبير الذي لا يعتلي وجهه شـيء آخر سـوي الوقار، كما أن الدماثة والتواضـع يبدوان عليه بشكل أكبر حينما يتحدث بصـوته الرفيع الخفيض. وبعد أن تحدثنا كثيرا، أخبرته أنني ســـأرحل غدا قائلاً" إنني متأثر للغاية لفراقي هذا المكان المبارك" فرد علي هو قائلا :

" لا تحزن، فأنت بامكانك أن تظل قريباً من هنا حتى ولو كنت بعيدا، فأنت لا تعتبر بعيدا عن هنا مطلقا مادمت تقيم للعدل دولته. فأنت مأمور بذلك' فلتحاول جاهدا ولتسعي لإقامة العدل. وما دمت تهتم بأمر المسلمين كما ينبغي وبشكل صحيح فلا يوجد هناك حينئذ من هو أقرب منك إلى هنا. فأنت تعلم بكل هذا. وإن شـــاء الله تعالي تأتي إلي هنا مرة ثانية... "

فأخذ السرور يرتسم على شفتي لكن كان سرورا يصاحبه حذر. حيث أن عظمة العدل– الذي لا يترك أي مسافة بينك وبين المعية النبوية –كانت ذات تأثير بالغ. وإن العدل والحق يشـتملان علي قيمة كبيرة وذلك بفضـل الحديث الرفيع " الدين المعاملة " وهذه القيمة كانت مسألة تدعو للتفكير في كل يوم وفي كل ساعة. فالعدل... هو العدل الذي تهرول إليه الأرواح أحيانا من تلقاء نفسها...

***

وفي السوق لم يكن هناك ما أقوم به من عمل علي الإطلاق؛ فخادمي كان سيقوم بإعداد حقائبي ، وتولي أصحاب البيت مسألة ما سنأكله في الطريق. أي كان لا يزال أمامنا بعض الوقت حيث كنا ســنســافر غدا قبل الظهر بســاعتين. وكنت أود توديع حضرة شيخ الحرم في الحرم الشريف. لذلك قمت بالعودة إلي غرفتي. واحتسيت الشاي الذي أعده الشـــيخ كمال وبدأنا نتجاذب معا أطراف الحديث. فتحدثنا في الشـــريعة والسياسة ولم ينفض مجلسنا هذا إلا قرب صلاة المغرب.

ودخلنا معا الحرم الشريف قبل الغروب بنصف ساعة أيضا. ووفقت في دخول حجرة السعادة للمرة الثالثة وذلك بإذن من شيخ الحرم. فتمسحت بوجهي في حضرة صاحب الرسالة وعدت. وبعد أن تسامرنا مسامرة مطولة وشيقة، قمنا بأداء صلاة العشاء في الروضة المطهرة.

***

السبت 27 أبريل 1328هـ

لقد كان ذلك الصوت الجميل ينادي مجددا "الصلاة خير من النوم ". وفي هذه المرة سمعت ذلك الصوت بأحاسيس الوداع. فقمت لأتوضأ وأنا متثاقل حزين وذهبت إلي الحرم الشريف من ناحية باب السلام. وفي الطريق قابلت دليلي الشيخ صالح. فدخلنا معا الروضة المطهرة. وكان الجو باردا جدا, والسكون يلقي بظلاله علي الحرم الشريف. وبعد الصلاة جئت أمام تلك النافذة الموجودة بواجهة حجرة السعادة, وتوقفت كما يفعل الجميع. وكان المكان هنا أشبه بمكان سلام وتضرع وتوسل. وفي هذه المدة التي توقفتها هنالك فتحت ضميري كله لله تعالي. وكانت كل الظروف التي من شأنها أن تهيج مشاعري وانفعالاتي مهيئة ومجتمعة. وإن توسلاتي لم تكن شيئاً سوي الدعاء بالسعادة لوطني الذي هو عائلتي الكبرى ولبعض الأشخاص الذين يشكلون عائلتي الصغري وكذلك لبعض أصدقائي الحقيقيين.

وحينما عدت إلي المنزل كانت الشمس قد بدأت تشرق. وهكذا اجتمعنا آخر اجتماع لنا. وبينما كنا نتأكد من الاستعدادات لكي نقوم بالرحيل' إتضح أننا نسينا الماء الذي يعتبر أهم متطلبات الطريق. ومن ماء (**العين الزرقاء**) الشفاف الذي لم أكن أشبع منه علي الإطلاق أخذنا قدرا يكفينا لمدة يومين. وبعد ساعة من الزمن غادرنا المكان مع سيارتين كانتا متوجهتين صوب المحطة. وكانت أماكننا معدة كما أن حقائبنا وضعت في أماكنها المخصصة لها. ودق ناقوس تحرك القطار في حين أن بعض الذين تكرموا بالمجئ كانوا لا يزالون يقومون بمراسم الوداع. وبعد نصف ساعة فقط أصبحت رجلا أخر استيقظ من حلم جميل ووجد نفسه في بعض الفيافي الجرداء الموحشة لواقع مؤلم قاسي...

***

ونحن نسير في الطريق بدأت أفكر في رحلتي التي استغرقت أربعة أيام؛ ففكرت في جوانبها الحسية وماهيتها الحقيقية والاجتماعية ونحيت أطوارها الخيالية جانباً. وكان أول حكم خلصت به في النهاية أن الإنسان في حاجة إلي الدين. وإنني أعبّر عن عميق أسفي لعدم مقدرتي علي الإيضاح المستفيض لتلك الأهداف الحكيمة التي يحملها كلام خير الأنام الذي قال " الدين النصيحة" ، " الدين المعاملة"؛ لكن إن كان هناك ما استطعت فهمه فهو أن كلمة(الدين) ما هي إلا أمتن وأصح أسس الغاية الوجدانية، بل هي أكثر هذه الأسس توازنا، تلك الغاية التي يطلق عليها العرب اسم (الشيمة و الخصلة) ويسميها الفرنجة يسمونها (الكراكتر). فالدين جامع وشامل لكل هذا. بل الأكثر من هذا أن المعني المحدود والمعين الموجود في كلمتي (الخصال و الكر اكتر) يكتسب وضوحا أكثر في كلمة الدين التي توحي من خلال (القانون المادي والأدبي) بغاية الكمال، كما أن المعني يكون بذلك أكثر وضوحا وتأكيدا واجتماعية.

آه.... كم للبشرية من العيوب الخفية والقباحات التي تتواري في ظل الذكاء البشري وتلحق الضرر الجسيم بالكيان والهيئة الاجتماعية ، وكم من السيئات والنقائص التي تدعو للخجل. وفي حين أن الفطرة تختار هذه الأشياء فالذكاء أيضا من ناحية أخري يحاول الإكثار منها. وإن هذه الأشياء من النقائص والسيئات في حالة زيادتها تؤدي إلي التردي القومي والانحطاط الاجتماعي بشكل لا نهائي؛ فالدين الإسلامي(إذا عُرِفَ جيدا وفهم وجدانيا) حينئذ سيكون هو القوة الدافعة التي تجعل النفوس البشرية تترفع عن هذه السفالات، وتنجيها من هذا المرض العقلي.

وإن الحكم الإلهامي للوجدان غير كاف لمنع النفوس البشرية عن بعض الصغائر والنقائص. كما أن ذلك يكون نادرا في حالة انعدام الضمير. وعلي ذلك فهناك حاجة ماسة للشعور والإحساس بالوجل و الخجل من الله "العالم بكل شيء والمطلع علي كل شيء ؛ فمثل هذا الشعور والإحساس يشكل المرحلة الأولي. فالوجدان من شأنه أن يؤدي للإحساس بأن معظم الأشياء التي يمكن الاختفاء عن أعين الناس عند ارتكابها إنما تتم تحت نظر الله ومعرفته الإلهية .

وفي حالة عدم وجود خوف ديني فإن الضـمير أو الوجدان أحيانا ما يتصـالح مع صـاحبه تحت تأثير نفسـي شـديد. وإن الإنسـان عندما يقول " لا يوجد ضـرر علي أحد من الشـيء الذي فعلته، ولا توجد قوة مسئولة ، إذن فلماذا علي أن أتعذب وجدانيا" فإن مثل هذا الإحســـاس أو الشـــعور من شـــأنه أن يخدع البشـــرية ويدعوها إلي الميل والانحراف. وكنتيجة لذلك فإن غير المتدينين بكل ما تحوي الكلمة من معني لهم قلب ضـــعيف لا يســـتطيع أن يتحمل الجبر والحرمان مثل الورعين الأتقياء حقا، وذلك لما يتمتعون به من إعجاب بالذكاء ، وما يصيب أحوالهم الداخلية من مشكلات ولا مبالاة. وهذا أيضـا ناتج عن عدم الشعور بحاجة إلي الحياء والخوف في آلافعال التي لا يطلع عليها أحد. وإن الشـهوات النفسـية بصـفة خاصـة تحتل المرتبة الأولي في هذا الصـدد. كما أن المشاعر الاجتماعية كثيرا ما تصاب بالانهيار بهذا الشكل.

وإن إضـمار مقتضـي آلافعال المشينة إنما هو بسبب الأذواق السـافلة التي تضـل القلوب التي تفتقر إلي الحس الديني. وإن الذكاء غير الديني في حين أنـه يُعتقد أنـه يســتطيع التفرقة بين الخير والشــر بشــكل جيد، نجد أنه لا يشــعر باعتراض وجداني، علي اسـتباحة المنهيات و كل السـيئات في عالم لا يعرف للخجل طريقا وخصـوصـا المضـرات، وأيضـا لا يشـعر باعتراض وجداني علي استباحة المنهيات التي يعتقد أنها تخصــه هو فقط. فعندما يكون الأســاس هكذا ؛ فإن الأفعال الحســنة في الظاهر تتبع أحاسيس لحظية لا استقرار لها، حتى أنها أحيانا ما تكون مشـابهة لتقليد ما، مما يحتم ويقتضـــي عدم الاعتماد الجاد عليها. فهذه الآراء وآلافكار للخاصـــة من الناس. أما العوام الجهلة فأحاسـيسـهم الدينية علي وجه الخصـوص كلها تقليد تقريبا. فلربما نجدها عند ذلك البائع البخاري – الذي اشـــتريت منه ســـاعةً في المدينة المنورة – خصـــالاً فطرية محضةً.

وإن ما ســيظهر في نهاية هذه الدراســة الروحية والأخلاقية لمدي ضــرورة الدين والحاجة إليه والتي سـتجري علي غير المعتقدين(أي من لا دين لهم) من أثر للتفريط والإفراط، لتعتبر بحق حالة تستحق التفكير باهتمام بالغ . فالانفلات النفسـي عند هؤلاء وما يفتقدونه أحيانا من توازن وكذلك تلك الخشـــونة والفظاظة والقبح الإنســـاني في المشـاعر– التي تظهر بالصـدفة– كلها أمور من شـأنها أن تبعث علي الحيرة والدهشـة

دون ســـابق إنذار. والســـبب في هذا يتمثل في " أن عدم الاعتقاد يترتب عليه عدم الخوف وبالتالي عدم الخجل والحياء"

وعندما نأتي إلي فقدان الشيم والخصال عند أصحاب المعتقدات فهذا بالتأكيد ناتج عن عدم فهم صـحيح للدين وبناء عليه يبقي الدين عبارة عن تقليد ينحصـر في القيام بالعبادات البدنية فقط من صـلاة وصـوم وما إلي ذلك. وكلما قل جهل أهل الإسـلام ؛ كلما قل هذا الأمر أيضـا ، وسـترتقي المعتقدات الدينية بنفس النسـبة نحو الصـلاح والإخلاص والصـدق والتقوى، وبالتالي سـترتفع نسـبة الخوف والخجل. لكن الاختلاف الموجود في الإلحاد أيا كان حجمه غير موجود هنا أي عند أصحاب المعتقدات.

ففي مقـابـل الامتنـاع الخفي للإلحـاد عن قـانون الآداب العـامـة بـدعوى عـدم المسئولية، نجد عند أصـحاب المعتقدات أن التحاشـي والامتناع شـيء محسوس أدبيا. ولأن تقليد أي شـــيء في هذا العالم ما كان في يوم من الأيام بالشـــيء الجيد ولا المتين،فإنه أصبح من الضرورة بمكان اليوم أن يقوم العلماء –الذين هم ورثة الأنبياء – بإمعان التفكير في هذا الحال أو بمعني أدق حالهم الوظيفي وأن يقوموا ببذل كافة المسـاعي لمحو ورفض الخرافات التي من شـأنها إضـلال العوام وتجهيلهم. وإذا لم يتم الاهتمام بهذه الأمور ، فلن يكون حينئذ فرق بين علم هؤلاء وجهل أولئك .....

ومن المعلوم بمكان أن الإلحاد وفد إلينا من أوروبا وخاصـــة من خلال تلك آلافكار والنظريات التي اعتنقها شـــباب المتعلمين. لكني أري أن هنالك فروقا كبيرة بين إلحاد المسيحي الأوروبي وبين ما عند المسلم

أولاً هو أوروبي من حيث المبدأ، لم يعجب بأصـول تلك الديانة المنسوخة المبدلة بتلك الأصـول التي فندها ونقدها التاريخ الحضـاري ولم يعجب كذلك بأسـسـها ومبادئها التي تقوم علي التثليث والتي كانت وســـيلة في أيدي الرهبان قاموا من خلالها بالكثير من الأحداث الاستبدادية علي مر العصور والأزمان، كما أنه أيضا لم يستطع أن يألفها لا بالعقل ولا بالحكمة، فلهذا كله تركها مستصـغراً إياها وارتبط إما بـــ(داروين) أو (بوخنر) ، وإما أنه لم يعجب بأي من هذه الأمور فأهمل نفســـه وأخذ يقول " لا يوجد داعي للانشـــغال بهؤلاء....." فمثل هذا الرجل فر من الضـــلال والباطل ، أما من

عندنا لو فعل ذلك فإنه حينئذ يفر من الحق والحقيقة. وإن الفرق بين الفرارين لكبير ومدهش. فالدين هو العدل والكرم.

أما الإلحاد عند الطائفة المتعلمة فيبدأ بفكرة" معرفة الإنسان لكل شيء مطلقاً وإنكاره لكل ما لا يعرفه". فعندما لا يستطيع أن يعرف كيف جاءت الكائنات إلي حيز الوجود وكيف وبأي صورة خلق الإنسان، أي عندما لا يستطيع أن يفحص سرائر الخالق والمخلوقات بما لا يتوافق مع فكره هو ؛ يترك هذا كله ويسلك طريق الكفر والإلحاد. لكن من الطبيعي أنه لا يمكن بحال من الأحوال معرفة كل شيء والوقوف عليه علميا وذلك لأن كل شيء في العالم– وحتى تلك السعادة التي يجري ورائها كل البشر– له مكانه في العقل والحس. وضروري أن تقبل بعض الأشياء من خلال الاستناد إلى التجارب والاكتشافات التي يقوم بها أهل الاختصاص. ذلك لأنه ليس من الممكن أن يتفق آلاف العلماء والحكماء ويجتمعوا علي شيء باطل وغير معقول. وبما أن علم الأشياء وكذلك الأسرار الإلهية لا نهاية لها ،فإن علمهما بشكل تام يكون بمثابة شيء يفوق القدرات العلمية والمعنوية للجميع علي طول الزمان.

ولا ينبغي أن يفهم من الدعوة إلي تقبل الشيء كما هو،أننا ندعو إلي الاكتفاء بالتقليد؛ لكن ما هو المفروض عمله لكي نقبل شيئا ما أو نرفضه،يتعين من أجل ذلك فحص هذا الشيء والإلمام به بكل ما يرتبط به من لغة وعلوم وفنون وفلسفة وذوق ، وينبغي كذلك تحليله بإعداد كل وسائله وأدواته. إذن فالشخص غير العارف باللغة العربية وغير الفاهم لها ولا يقف علي الفلسفة الإسلامية ، لا يحق له بأي حال من الأحوال أن ينكر القرآن المجيد. ومن يفعل ذلك لا يمكن أن يصل حتى لمنزلة الجاهل الجريء الذي تردد بين القبول والرفض.

وفي عالمنا هذا توجد أشياء ومسائل كثيرة محكوم علي البشر أن يشاهدوها طوال عمرهم بدهشة. ولقد نظمت نغمة العالم علي هذا الشكل. إذن فبعد أن يفهم الإنسان له حق الاعتراض علي الشيء الذي لم يستطع عقله أن يقبله. وحكمه بشأن الشيء الذي لم يستطع أن يفهمه لا يعتد به وذلك لأنه مبني علي جهل.

فعندما لا يحالفنا التوفيق في الإحاطة بالمســـألة من كافة جوانبها والإلمام بها بشـكل تام فإنه يتعين علينا حينئذ أن نقبلها كما هي. وسـأروي واقعة تثبت أن الوقوف علي الشيء والإلمام به شرط للحكم عليه:

ذات يوم من الأيام كنا نتحدث مع أحد الأصـدقاء المسـيحيين وهو شـخص يتمتع بالذكاء ، حصل تحصيلا دراسيا جيدا، عارف باللغات ، كما أنه أيضا ملم تماما بآداب وبلاغة اللغة العربية التي هي لغته. وعندما انتقل الحديث إلي القرآن الكريم قال هذا الرجل " من الشـــيء المؤكد الذي لا شـــبهة فيه أن القرآن كلام الله" ولقد جذب هذا التصديق بشكل كبير لاسيما وأن قائله مسيحي، لذلك سائلته قائلا " من أين لك الحكم بهذا ".

فرد قائلاً:

– كيف لي أن أوضــح هذا. فهو شــيء يُعبر عن نفســه بلغته هو، فمثلا عند تطبيق قواعد اللغة أي عندما نفكر قواعديا فإنه يتعين علي الإنســـان أن يقول آية" إياك نعبد وإياك نســـتعين " علي النحو التالي وهو " نعبدك ونســـتعين بك " لكن الفرق كبير ومدهش بين القولين من حيث القيمة البلاغية وكذلك من حيث الفصاحة. حتى لو أنكم قرأتم القولين علي أحد لا يعرف تلك القواعد فأنا واثق ومتأكد من أنه ســـيختار ويحبذ القول الأول. فالروعة في هذا عظيمة وجميلة لا يمكن لأحد أن يكتشفها سوي العارفين بتلك اللغة وإنها لعظمة لا يمكنني وصفها....

وعندئذ جال بخاطري شـــيء مهم جدا وهو أن الدين ليس العقل فقط وإنما هو الذوق والحس أيضـــا. فالذوق الســـليم يمكنه أن يشـــعر ويحس بالمعتقدات الدينية في النواحي التي لم يتمكن العقل من الوصـــول إليها وإدراكها. وهناك ثلاثة أشـــياء ينبغي توافرها بشـــكل قاطع حتى يتســـنى فهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشـــريفة وهذه الأشياء ذكرتها قبل ذلك وتتمثل في : أولا العقل الإنساني ، وثانيا الذوق وثالثا الوقوف الجيد علي اللغة العربية وإتقانها.

وبالنسبة لجوانبه الجمالية الذوقية: فهذه مسألة مرتبطة ولو بشكل بسيط بمعرفة اللغة التي ستساعد علي فهم درجته البلاغية، إلا أننا نعترف أن القرآن له عالمه الآخر الخاص به حيث يوجد فيه لكل شـــيء نوع آخر من الزينة والكمال وكل كلمة من

الكلمات تمتلك وقعا حســـيا أخرا. فمثلاً في الآية الكريمة التي يقول فيها الله ســـبحانه وتعالي " وليخش الذين لو تركوا....." نجد أن الكلام الإلهي هنا قد صـور بشـكل رائع وعجيب مدي قلق وإحساس رجل ذو مرض و بلغ من الكبر عتيا ينتظر قدوم الموت في أي لحظة من اللحظات تاركا خلفه ذرية صـغيرة ضـعيفة لا تقدر علي شـيء، فهنا كان الأمر الإلهي لكل من هم علي شـاكلة هذا الرجل ، فلكي يسـتريح هؤلاء الأطفال الذين يحبهم الأب وتركهم خلفه بعد موته فعلي هذا الأب أن يســـير في دروب التقوى وأن يعطف دوما علي الأطفال اليتامى بشـــتى أنواع العطف المعنوي منه والمادي وأن يتوجه إلي الله سبحانه وتعالي في كل وقت وحين قلبا وقالبا وأن يكون لسانه دائما رطبا بذكر الله تعالي.

ولقد أدركت مدي رفعة هذه الآية الكريمة وقيمتها العالية عن طريق الصـدفة في إحدي حفلات الزواج. وحفل الزواج هذا كان لابنة أحد المتوفين وكان يدعي"..... أفندي"وكان رجلا صـالحاً جدا ومستقيما لا يسير سوي في طريق الحق. ولم يترك هذا الشخص شيئاً مطلقاً لأسرته بعد وفاته، وكان يعمل دوما طوال حياته لكنه كان مشغولا بتربية طفلين يتيمين من أقاربه مع أطفاله، ولقد توفي هذا الرجل قبل حفل زواج ابنته بتسعة أو عشرة أشهر. والرجل الذي تزوج ابنته كان شابا شريفا دمث الخلق إلي جانب أنه كان غنيا. وكان أيضـا رجلا كاملا يسـتطيع العيش مع زوجته وأن يُعيش أهلها في رفاهية لو شاءوا هم ذلك. وعقب عقد النكاح تلا أحد الحضور وهو صديق حميم لعائلة المتوفى هذه الآية الكريمة بعد أن تحدث عن فضـائل وأخلاق أبيهم المرحوم. فجلسـنا جميعا وكنا 35 شـخصـا في سكون تام وكأننا قد تجمدنا في مكاننا. وكان في قلب كل واحد منا ما يخصـــه من دهشـــة كثيرة كانت أم قليلة ، لكن عظمة الحقيقة التي تم آلافصاح عنها كانت تأتي في ظلالها بعبودية وجدانية ..

ونظرا لأن الـدين الإســـلامي في الحقيقـة هو مـدار قيـام واعتـدال الأخلاق والمعنويات ـــ بشرط فهمه جيدا ـــ فإن كل شيء يأتي ويخرج من هذا الدين مثل حب الأطفال للآباء وعشـــق الآباء للأمهات و إدراك الشـــعوب الكامل للموجودات الأبدية وســـعادة الحياة الاجتماعية بالقضـــاء علي الســـفالات والتخلص منها. ومن الواضـــح والجلي أن من يتبعون غيره في شر انهزام علي الدوام .

***

لقد كان قطارنا يســير بكل ما أوتي من ســرعة. فأفقت من هذا التفكير العميق حيث جذب انتباهي شكل الأراضـي المحيطة بنا فلقد اعترتني الدهشـة مما دفعني لأن أشـاهدها وأنا أتنقل من نافذة لأخرى. ,وأخذت أفكر كم شـخص من أبناء وطني يختار السفر والترحال بقصد السياحة والترحال فقط بغية مشاهدة مثل هذه الأرجاء والأماكن ، فهم أناس قد اعتادوا علي أماكنهم التي يقيمون فيها ولا يخرجون من اســتانبول العتيقة التي تعتبر المركز الحضـاري والسـياسـي للوطن إلا وهم مكلفين بوظائف ما خارجها. فهم لا يعرفون عن العالم الخارجي ســوي ما ينشــر في مجلة **(ثروت فنون)**([20]) من صــور تعرض مناظر العجائب الطبيعية بأمريكا وغيرها وتصــور مثل هذه الأماكن . كما أن كتبنا الجغرافية لا يوجد فيها ولو حتى صـــفحتين عن مثل هذه الأقاليم. حتى آثارنا المكتوبة قد ورمت عقولنا هي والتتبعات الفنية الخاصـــة بالتاريخ والزراعة والصـــناعة والتاريخ الطبيعي والتربية وعلم الاقتصـــاد، كما أنها لم تكن شـــيئا ســـوي معلومات مكررة منقولة من كتاب إلي آخر . فمشـــاهدة العالم من المكان الذي نجلس فيه، ومشـــاهدة الهند من ثقب إبرة ما هو إلا قدرة اســـتعدادية خاصـــة بنا فقط، ولكن الأمريكان نجحوا في كشف سر هذا، وإلا فإنهم لم يكونوا بحاجة لأن يأتوا من شيكاغوا إلي وادي موسى ليدونوا ويسجلوا أسمائهم علي جدرانه البالية....

لكن من الوارد أن يكون هناك حق لالتماس العذر في هذا الكلام هو أننا أمة فقيرة وليس لدينا من الاقتصـاد ما ننفقه علي الرحلات. هذا العذر صـحيح في حد ذاته لكنه مبالغ فيه بالنسـبة لنا.فهذا ليس بسـبب الحالة الاقتصـادية وإنما بسـبب إهمالنا وما لدينا من عدم رغبة في التجول والمشـاهدة وهذا بسـبب أن ما تلقيناه من تربية لم يكن دافعا لنا. فنحن إما نفكر قبل الشـــتاء بأربع شـــهور أو في الصـــيف في أي جزء من البسفور أو خط حيدر باشا سنستأجر مصيف ونقوم بحساباتنا علي هذا الأساس. وإما نتفاخر ونتباه بالتفكير وصرف النفقات علي الأشياء الأقل أهمية من هذا بكثير. ونحن

---

[20] – اسـم مجلة أدبية، تضـم تيارات الأدب الجديد في تركيا في الفترة من عام 1891 – 1944م، بدأت في الإنتشـار على يد أحمد احسـان، ولعبت دورا كبيرا في الأدب التركي لفترة ما، من أشـهر أدبائها نابي زاده ناظم، رجائي زاده محمود أكرم، أحمد راسم، خالد ضيا . (م.ح) .

في واقع الأمر ننتظر الشهور بفارغ الصبر لأنه لا توجد ميزانية سنوية لنا؛ ونعتبر أن ذلك المصيف والصفاء الشاعري بمثابة إنجاز العام كله. وإذا كان معنا مائة ليرة زائدة عن الحاجة لذلك الموسم الصيفي الذي سنقضيه ، فنحن لا نخصص منه أربعين ولا حتى ثلاثين ليرة للقيام برحلة إلي بعض الأراضي المهمة الآخري غير استانبول كأن نذهب إلي فلسطين أو نقوم برحلة علي خط الحجاز. فورثة (بيزنطة) لا يتخيلون ولا يتصورون علي الإطلاق وجود مكان آخر في العالم يتمتع بأهمية كبيرة ويستحق المشاهدة سوي عاصمتهم وحاضرة بلادهم.....

وإن نبينا الكريم مرشدنا إلي الحكمة أمرنا بالترحال حيث قال صلي الله عيه وسلم كلاما يعني أن ترحال جماعة من المسلمين يعني الجهاد في سبيل الله ، وهو صلي الله عليه وسلم لم يكتف بأمره الجليل السابق بل قال أيضا " سافروا تصحوا " ويوجد في السفر صحة بدنية وفكرية معا. بل هو أيضا صلي الله عليه وسلم لم يجد الأمر بالترحال والسفر الغير محددين كافيا بالغرض فأوصى من لا تسير تجارته كما ينبغي ، أن يذهب إلي عمان وليختار المكان هنالك ، وهذا ما فعله الإنجليز وتواجدوا في تلك المنطقة. والسبب في اختيار اسم عمان هنا بالذات هو ما كانت تتمتع به عمان من رواج تجاري سواء في تلك الأزمنة السابقة أم الآن. وإن الهدف النبوي السامي في هذا الحديث يتمثل في تحسين عمل التاجر، وتطوير خبرته فيها ونشاطه، والاستفادة من السفر ومعرفة ورؤية العالم. والنتيجة واضحة لا خفاء فيها ، فهاهم المساكين بسبب عدم التزامهم بهذا الأمر وعدم إتباعه لم يفلحوا في تحقيق شيء ، كما أنهم يهيمون في يأس بالغ، وهاهي مكانة الإنجليز ووضعهم الراهن في عمان وخليج البصرة وكذلك وضعنا ومكانتنا ليس اليوم فقط بل والغد أيضا. أليس من القدرات والمميزات الخاصة بنا أن نقف على كل الأمور الإدارية والخفايا السياسية للدولة بشرط عدم مغادرة استانبول مطلقا ؟

يوليو 1328هـ

زيارة وادي موسى

يوم الأربعاء الموافق الثاني من مايو

تحركنا قبل الظهر بوقت قليل من " **معان** " . وعندما خرجنا من القصـــبة ظهرت أمامنا صـــحراء رملية ، تمتلئ بأحجار الحصـــاء ، وهي وعرة قليلاً . وكانت ممرات الســـيول التي تمتلئ بالأحجار الزرقاء والوردية اللون ، والجداول التي تفيض بماء الأمطار في موسم الشتاء ، وتجف صيفاً ، تغيّر هذا المنظر في بعض الأحيان ، ثم ما تلبث وديان الرمال الصفراء أن ترتفع نحو آلافق وتنتشر، وكان ثمة مناخ صيفي في ذلك اليوم خاص بتلك الصحاري الجرداء الساطعة الشمس وكانت علامات الحرارة التي تؤثر تأثيراً قوياً على الوجوه ، أمراً محسوساً مستشعراً .

كانت قافلتنا الصغيرة جداً تسير في حالة متفرقة . كنا نسير سيراً مطرداً ، حيث كان ثمة اثنين أو ثلاث حيوانات من حيوانات النقل التي تحمل الخيام والحقائب، والسلال و الفراش تسير في المقدمة ، وكان الطاهي الذي انشغل مع البغل الشكس يسير في المقدمة ، وكان إلى جواره أحد عساكر المقدم صديقي، وكان خادمي يسير على اليمين مع اثنين من رفاق الرحلة ، وكان يســـير أمامهم ثلاثة من أفراد خيالة قوة الدرك.

وعندما أحست الفرسة – العربية عريضة آلافخاذ ، رفيعة العنق – أنها قد بعدت قليلاً عن ولدها البالغ من العمر ثمانية أيام ، أخذت تنظر حولها بنظرات مفاجئة وراحت تصـــهل على الفور . وحين كان يخرج إثنان أو ثلاثة من الخيالة في شـــكل منتظم وعلى نحو مفاجيء ، كانوا يزرون رمال الصحراء الشاسعة الواسعة حين ترتفع الدوامات الرملية وكان الغبار يرتفع عندما تتطاير الأحجار من تحت أقدام خيلهم، ثم يبدءون فيما بعد سيرا مطردا، وكانت الأشواك والخمائل القصيرة والأعشاب التي تفوح رائحتها تبدوا في هذه المرة حين يتبدل منظر الأرض، إنه إقليم موحش خال من الأشجار والمروج، إنه بحر شمسي بلا ماء .

ولم يكن ثمة ذو روح على الإطلاق بخلاف الزواحف من نوع الحرباء الصـــغيرة الحجم ، التي تتلون بلون الرمال وتتلوى بســـرعة مفاجئة أحيانا أمام الجواد ، ثم تفر مختفية عن الأنظار ...

وبعد ثلاث ساعات ظهرت – بينما كنا ننحدر من هضبة مائلة بعض الشيء – خرابة في شمالنا محاطة بالجدران المهدمة وأكوام الأحجار التي لا حصر ولا عد لها ، وكان أمامها وادى أصفر ، يغيب وهو يدور مع طول سلسلة الهضاب التي يتوارى خلفها .

وكلما اقتربنا ، كانت الأحجار المتباينة الألوان في ذلك الماء البراق الذي ينبع من أطراف الأطلال ممتدا داخل الوادي ، وكذلك جريانه وهو يغسل المروج التي نبتت على ضفتيه ، يداعب الأنظار . نزلنا على صفة فسيحة وخاليه من العشب من ضفتي الماء . وكانت نظافة أحجار الحصاء الملونة بالألوان البيضاء والحمراء والزرقاء أيضاً ، تعرض لوحة طبيعية مبهجة كامنة هناك ، ونضارة حسنة تماماً مثل العيون البريئة اللامبالية . وكانت جيادنا تشرب الماء على نحو وقور ورقيق بينما تطوف شفاهها فوق هذا الماء الشفاف . وبعد أن انتهت من هذا ، بدأت تأكل من المروج الخضراء . وقد تناولنا نحن أيضاً طعامنا بعد أن تجولنا قليلاً بين هذه الأطلال ، واستند كل واحد منا إلى ناحية وهو يشم أوراق نبات النعناع البري الذي عطر قبضات أيدينا ، وتبادلنا أطراف الحديث مع الشيخ البدوي الذي جاء إلى جوارنا . وعندما ذهبنا إلى منبع الماء ، نظرنا إلى موضع صدوره الذي يؤثر على الأنظار بفعل السرور الندى والنشوة المطلقة ...

وبعد مدة من الوقت ، أخذت الدواب التي تحمل أمتعتنا طريقها نحو الهضبة من جانب الأطلال وقد أمتطينا جيادنا سائرين في إثرهم . وسوف نصل [**وادي موسى**] بعد ساعتين .

كان طريقنا أكثر وعورة في هذه الأماكن ، وكانت البيئة من حولنا ذات لون أكثر اختلافا . حيث كانت الأعشاب أكثر ، وكانت بعض المناطق تبدي منظراً أكثر خصوبة بسبب حقول الشعير والقمح . كنت أشعر بالمتعة بسبب صهيل الفرسة على ولدها أحيانا . وكانت الحرارة أكثر تأثيراً ، والجبال ملفتة للنظر ، وكان بعضها عظيماً للغاية .

وبعد أن بعدنا عن الماء بساعتين ، كنا أمام منظر ما أجمله : حيث ظهر ذلك المكان الصخري الحجري الذي ارتقينا أعلى مكان فيه ، في شكل إقليم مختلف لا يشبه ما حوله بسبب عظمته ومنظره الجاف ، والثقيل للغاية في مواجهة جميع الجبال

المحيطة به ، بضعة آلاف من الصخور الصلدة ، التي لها لون القرميد المحترق ، أو الدم المتخثر ، ذات الظلال البنفسجية الداكنة اللون ، هذا الوادي الذي يمتد ماراً من بين الحواف المتعددة لتلك الجبال المتراصة ذات الجانبين التي تتجه إلى أمام إحدى الهضاب وكان ثمة عصر من عصور الخليقة منقوشا على السطح الحاد والفجوات المظلمة لهذه الجبال ، إنه عصر غريب يقرأ فحسب في العالم الغيبي لأسرار العظمة وقصة الخليقة التي يقول التاريخ إنها حدثت قبل التاريخ !

وهكذا كان وادي موسى يمتد بين تلك الأشياء ويتسع .

نزلنا من الهضبة القائمة ونحن نوجه ونسيطر على خطوات خيلنا الحذرة بين الأحجار الصلبة ، وكأنها تنزل درجا ، ونحن نسمع بصورة منتظمة أصواتاً رنانة تصدر من الاصطدام المستمر لتلك الأحجار الصلدة بحدوات خيولنا . وبعد أن تجولنا مدة من الوقت بين الممرات الصاعدة الضيقة المحاطة كلها بالأشجار في ناحية " **وادي موسى** " وصلنا إلى المكان الذي يمتلىء بالمروج الذي سنقيم فيه خيامنا، ولقد اصفرت الشمس ، وامتدت الظلال ، وصارت داكنة جداً ، وكان بجوار خيمتي وعلى مقربة شديدة جداً من هذه الأرض المستوية التي تدثرت بالمروج ، ثمة منبع مائي صغير جداً ، يتلألأ مختلطاً بالجدول الصغير الذي يقع في الأسفل حين يتدفق من مجراه الصغير ، وجبال جميلة تناثرت الصخور العظيمة الحجم على جنباتها . لقد كان جمال هذا النهير الصغير الذي تزينت ضفافه بالمروج ونباتات النعناع البري ، يمثل هنالك كيانا جدير بالمطالعة والنظر إليه . لقد لمسته برفق ، وداعبته بشوق ،

وشربت منه كثيراً أملاً في أن يروي شعوري بالظمأ المعنوي ، وارتضيت أصواته الهادئة التي تذكر بالجريان اللطيف الساكن غير المتفاوت ، البسيط لأولئك العشاق المستريحي البال والذي يشبه صوتاً طفولياً ، يناجي خيالي ، فاستمعت إليه ...

يوم الخميس الموافق 3 من مايو

امتطينا جيادنا لكي ندخل [وادي موسى] صباحاً . وبعد أن اجتزنا منحدرا يلتقي بالجدول الذي يستمر متعمقاً إلى حد ما أمام خيامنا ، والماء البراق الذي في نهايته ، دخلنا الوادي من جانب الهضبة البيضاء التي تقع في مواجهتنا . وكان الماء

يتدفق صوب الكثير من المروج أحياناً ، ويتوارى احيانا أخرى . لقد أصبح الوادي حارا ، وبدأت الشمس تسخن الصخور التي تقع على جانبينا . تقدمنا و بعد فترة من الوقت ، إزدان طريقنا بالكامل بالأشجار التي ازدهرت أزهارها الوردية اللون .

وحتى تلك الزهور التي امتدت فوق الأرض وفوق الأحجار ، ذات الأوراق البراقة وفروعها التي حولها النائمة على الأرض ، وكذلك قاماتها التي تهتز دائماً بنسيم خفيف ، وخصوصاً أزهارها الوردية اللون التي يبلغ عددها الملايين ، والتي تصدر نغما وترسم منظرا يبعث على الصفاء مع تلك الأوراق البراقة الزمردية اللون ، جعلت الأزهار ذلك الوادي الذي لا تظهر نهايته بمثابة خيال لبستان ، وحديقة من حدائق زهر الخزامى . كنا نمر من الفراغات الضيقة التي تركتها الأزهار والزروع فيما بينها ، بينما كانت صدور جيادنا وركابنا تحتك بها أحيانا . كان الوادي كله قد تدثر باللون الأخضر والوردي . وبمجرد أن اجتزنا الهضاب الجرداء التي تقع على الجانبين ، تتبعنا منحنيات واسعة تجرنا نحو اليمين واليسار وإلى الأمام ، وصلنا مدخلاً ضيقاً . كان هذا المكان مضيقاً ضيقاً للغاية ، أو ممراً يمتلأ بأحجار القداحة والحصاء بعرض خمس أو ستة مترات فحسب بين جبلين شاهقين وكأن كل واحد منهما أطلال قلعة خربة ذات أوتاد ودعامات .

سرنا في طريقنا ، وكانت الجدران التي على جانبينا ترتفع تدريجياً ، وكان ارتفاعها يبلغ عشرين ، إلى ثلاثين متراً ، وكانت أسطحها مجدبة ، تظهر أكثر وجوه الطبيعة وقاراً وعظمة وجمالاً وعجباً مع بعض العوائق والحواجز البسيطة العميقة .

وكنا جميعاً ننظر باستغراق جميل وقد لفنا السكون ، سكون أوقف تفكرينا أمام هذه المعجزات ، وهذه الدهشة الغريبة والحيرة الكاملة التي لفتنا . وقد كانت قمم تلك الجبال حمراء اللون والتي يكون لونها في بعض الأماكن أرجوانيا ، . حتى أننى أستطيع الزعم أن ذلك الطريق الضيق الذي يسير بحذائه لم يتسن له أن يرى نور الشمس منذ بدء الخليقة متوارياً تحت ظلال أبدية . كم هو لون أحمر جميل ، وما أغربه من انتظام ، كم هو سكون عظيم يدعو إلى التفكر ... ومن يدري كيف انزلقت الصخور المتصدعة من وسط الوهاد ، إنه مكان حدثت فيه تحولات طبيعية كبرى ، حيث تجد به الكتل الحجرية العظيمة التي تشبه في ضخامتها بناءا ضخماً وقد أغلقت

تقريباً نصـف الوادي الضـيق جداً ، والقطع التي تفتتت وتناثرت ، وربما الصـواعق ، والهزات الأرضـية ، وكذلك الأمطار المستمرة التي تدعو للدهشـة، هي التي فعلت ذلك ، إنه مكان للتحول والانقلاب الذي تؤدي إليه حرارة الشمس المحرقة ! ...

وقد تكونـت بعض القطع في هذه الجدران الحمراء اللون التي تحـافظ دائمـاُ – حســبما أرى – على كونها الأولى داخل مباني الطبيعة الغريبة ، كونت مجموعة من الفتحات الصغيرة .

وهناك أشـــجار الزقوم التي نثرت أزهارها الوردية اللون حولها في بعض الأحيان مع مجموعة من النباتات الظريفة تنبت تحتها ، وقد نبتت أشـــجار التين البري إلى الداخل وإلى الأعلى ، حتى إن بعضـها قد خرج من أعلى إلى أسفل أو في وضـع أفقي .

وكانت أصـوات صـهيل الخيل التي تنعكس منبعثة من الأرض المغطاة بالأحجار الصـــغيرة والكبيرة التي لا تحصـــى والتي تجعل الوادي أكثر وعورة ، ولم يكن الوادي لينتهي رغم أننا كنا نسـير فيه منذ نصـف سـاعة ، وكان عرضـه يضـيق في بعض الأماكن حتى يصـل إلى أمتار . وكانت أجمل وأبقى الظلال تكمن في هذه المواضـع منه وبوســعي القول إن ثمة ســحر مؤثر وغريب يتولد و تغيب القدرة على التخيل في هذه الأماكن ، من جراء الوهن والضـــعف الذي يحدث ، وتحل محلها انفعالات الإحساس العاجزة والمرتعشة .

توقفنا أمام القصر أو المعبد الذي ظهر أمامنا فجأة .

وكانت ثمة باب عظيم ومرتفع مفتوح في باطن الجبل ، وتمثال واحدة على أسطح الجدران التي على جانبيه قد أفسدته العديد من العصور بشكل كامل تقريباً بفعل التآكل والحفر وثمة شرفة قد أقيمت بالطول فوق الباب ، بواسطة الأعمدة الغليظة التي توجت بالعبارات البارزة " Vorentiyen " ، وشـرفة عالية بقدر الطنف الذي يقع في الأعلى قســمت أجزاء عمودية بواســطة دعامات غير حقيقية وقد برزت خارج الواجهة وكأنها قوس نصـف دائري في وسـط الطابق الأعلى ، ودفن نصـفها بالداخل أيضـاً – كانت هذه الأشياء – تداعب الأنظار بسبب ذلك التوافق الفني البارع . وكان الجزء الأوسط من الصور النصف دائري قد أنمحى وبلى، و قسم أيضـاً من الأسطح

التي تتوسط الأعمدة غير الحقيقية ، يصور ويرسم صورة " **ايزيس** " وكانت الأسطح الجانبية لهذا الطابق أيضـــا مزينة بالتماثيل المحطمة تماماً . كما كانت الزخارف الظريفة التي رســـمت على آلافاريز التي تجوب أعلى الطابق العلوي مع الأفاريز الزخرفية الطولية التي تميز الطابقين عن بعضـهما البعض ، والنقوش غاية في الجمال ورقة الذوق الكافية في الزينات الهندســـية المصـــنوعة من الزهور ، والتي تخفق من وحشـــة الأودية المهملة على ذلك النحو ، وتجعلها مقراً قديماً لحورية الشـــعر ، يخلق نوعاً من التضاد مع المكان ، ما أجمله

ومما هو جدير بالانتباه ، أن هذه الأطلال البديعة التي نســـيها التاريخ – وفق احتمال ما – تنسب إلى الإمبراطور [**آدريان**] الذي زار هذا المكان عام 31 للميلاد ، وقد بناها باسم " **ايزيس** " وتم إنشاء كل أقسامها بشكل بالغ الانتظام فوق ذلك الجبل الأحمر ما عدا الدعامات الكبيرة ، .

وكان يوجد بداخلها إلى جانب الردهة العظيمة غرفة واســـعة في كل جانب من جانبيها .

وعندما انعطفنا يميناً من أمام المعبر ، تعقبنا الوادي . وفي هذه المرة اتســـع طريقنا ، وانتهينا بعد قليل إلى ساحة غير منتظمة . وكانت الجبال الحمراء اللون التي نقشـــت واجهاتها بالأفاريز الزخرفية والســـوارى ، والعديد من النقوش حتى أعاليها عن يميننا ، محاطة بـــــ(أنفى ته أتر)التي تتخذ شكل نصف دائرة وتتجه نحو الهضاب تدريجياً عن شـمالنا وكان يوجد في جانبي هذا المكان العديد من المغارات ونوع ما من المخازن أو القبور .

كنا موجودين في وســـط المدينة ، في ســـاحة من أكثر ســـاحات هذه الأطلال المعمورة احتشاماً ، والتي ترجع إلى " **ناباته ئن** " الذين لم يتسن لهم أن يخلفوا وراءهم شيئاً سوى مقبرة ساكنة موحشة عبارة عن هذه التجاويف والمغارات والتي لا يدري أحد في أي عصر مجهول من الأزمنة القديمة بليت ودالت .

وكانت كل جهة ، وجميع المغارات ممتلئة بالرمال التي تحركت وانشـقت بسـبب الشـمس والسـيول والأمطار التي امتزجت بعضـها البعض وغاصـت بالأرض، وأكوام

الأنقاض والحجارة الصغيرة ، وكانت تلك الأطلال من أولها إلى أخرها تمتلئ بالأجساد الميتة التي ستذهب على هذا النحو حتى القيامة .

سرنا مسافة قليلة . وفي هذه المرة ، ظهرت على يسارنا أيضاً حشود جديدة من الأحجار والأنقاض . إنها كومة خراب شديد يبدو أنها مدخل ، ثم سلكنا طريقاً طويلاً ، ثم وجدنا معبداً خرباً بقيت منه ثلاث حوائط ، والتي يتضح من خلالها أن هذا الأثر ما هو إلا معبد وثني يعود للرومان ، إذ تظهر سماتهم المعمارية في التزيينات الهندسية البسيطة التي استطاعت أن تحافظ على وحدتها في بعض الأماكن ، كما أن ثمة حمام يوجد في مواجهته أيضاً .

وكان ثمة عمود بقى وحيداً في الهضبة التي تقع خلف المعبد ، ينظر نحو الجبال والأنقاض المواجهة ، وكانت المداخل المنظمة للمقابر الضخمة المنحوتة بمهارة فنية أيضاً في سفح الجبل الذي يسير ويمتد جهة ناحية أخرى تختلف عن الجهات العليا في المعبد ، وتتوجه جهة الخرابات التي عرفت أولاً باسم " خرابة النصارى " ثم أطلق عليها فيما بعد اسم " البتراء "

وعندما اختبرنا المعبد ودخلنا الوادي بمقدار قليل . وجاء الوقت الذي أصبحت الخيل فيه لا تستطيع السير ، ولا تستطيع أن تجد طريقاً من بين أشجار الزقوم أو حتى من جانبها ، تلك الوردية اللون التي غطت تغطية كاملة الطريق الضيق جداً ، ويتعذر عليها التقدم . فنزلنا عن الحيوانات ، وكنا ننفذ إلى أماكن مجهولة وعميقة وكأنه لا يمكن الرجوع منها ، ونتجه تماماً نحو الفجوات المظلمة في تلك الصخور التي تضلل الطريق . ثم غبنا بين الأحجار حين صعدنا من تلك الدرجات التي حفرت فوق الصخور في زمان ما . وعندما مررنا من أمام فتحات الأضرحة المتعددة وصلنا قبراً يوجد على كل جانب من مدخله تمثال لأسد . وحين انعطفنا من هذا جهة اليسار ، وصعدنا مرة ثانية تلك السلالم التي حفرت فوق الصخور ، صعدنا أمام المعبد الذي أطلق عليه العرب اسم " الدير " وكان الجمال السامي الخاص بآلافاق والرحلات الطويلة لذلك المنظر الذي يمتد من إحدى جهاته نحو جبل هارون يمنع الإنسان هناك من السير لمدة ما . وكان هذا المعبد البالغ ارتفاعه أربعين وربما خمسين متراً ، يشبه

تماماً معبد " الإمبراطور أدريا ن " الذي رأيناه من قبل لأول مرة . وكان معبدا ظريفاً ومزخرفاً .

وقد كانت الفنون البديعة المغرورة لا تزال قائمة موجودة في واجهته التي توارت بين الجبال وبين صـــخور أكثر الوديان غرابة . وكان الحال المتفرد المحير الكامن هاهنا ، والإهمال الذي يرجع دائماً إلى الماضـــي الســـحيق الذي حفظه داخله ، كان يبدو وكأنه يسـمع الإنسـان المواعظ والنصـائح المتنوعة بواسـطة نغمة قديمة عجيبة ، وكانت نغمات الأدعية المتألمة تأتي مع القصـائد الغربية الخاصـة بالقرون الأولى من الصدى الضعيف ومن الكلمات المجهولة لذلك الإنسان المجهول غير المعروف !...

وعلي حين كنا نسـير على الأقدام أو راكبين فوق الدواب منذ ثلاث سـاعات من طلوع الصـباح ، فقد دهشـنا عندئذ لأننا كنا مشـغولين ذهنياً وحسـياً في أركان وادي موسى ، وفي اتساع مساحة خرابات " **البتراء** " . ثم عدنا من " **الدير** " ثم نزلنا أمام سلسلة من المقابر التي تؤدي إلى [**خرابة النصارى**] .

بدأت أطوف بفجوات الجبل على الترتيب . فكانت هذه الفجوات بمثابة مجموعة من المقابر الكبرى والعظيمة الواسعة ذات الأسقف العالية . بيد أنه كان يوجد في هذه الجبال إلى جوار العديد من الغرائب التاريخية ، لطائف صغيرة جميلـة ومتباينة الألوان خاصـــــة طبقات الأرض و المعـــادن والتكوينات الأخرى . وكانت الألوان المتباينة للطبقات الرملية المتحجرة التي تشـــكل الجبل ملفتة للنظر وكانت خطوط الرمال ذات الألوان : الأسود والبنفسجي والوردي الذي يشبه العقيق الأحمر والأصفر الفاتح ، التي تمتد وتستمر مع خطوط متصلة بين اللون الأزرق السماوي ولون زهرة الليلك الفاتح ، والأشـرطة ذات الثلاثة ألون كالأصـفر والأبيض والأزرق أحيانا ، والدرجات المتداخلة والمتموجة لمجموعة ألوان كاملة – كانت – تصور جماليات ومحاسن الطبيعة الخاصة وغير العادية التي تخرج عن حدود المألوف . وهذا يعني أن الألوان البديعة التي في الأزهار موجودة أيضاً في الأحجار .

تناولنا غذاءنا في هذا المكان . ورعت دوابنا العشـــب قليلاً على حواف الجبل . لم يكن ثمة رياح على الإطلاق ، وكان الهواء يسخن ويصير مضجراً بشكل تدريجي . فأخذنا طريقنا حيث قررنا العودة إلى خيامنا .

وعندما اجتزنا موضـــع [آنفى ته آتر] دخلنا الوادي ونحن ننظر نظرة أخيرة إلى المعبد الذي قد حكم عليه بالمحو والانقراض على نحو تدريجي كانت الأماكن التي تســتطيع الشــمس الدخول إليها حارة ، وكانت الأقســام الظليلة باردة ، إلا أنها كانت داخل جو ثقيل خال من الهواء . وعلى حين كنا نســـير متجولين في الوادي الغريب والمهيب الذي من المعلوم أنه ليس له نظير في الدنيا ، كان الشــيء الذي جذبنا إليه ؛ زواياه التي تنام كالعماليق .

شربنا بعد ساعة ونصف الساعة مرة واحدة من قهوة عربية خالصة أعدت بشكل جيد للغاية . وكانت النكهة العطرة لشراب الصحراء المر هذا طيبة حقاً .

كنت في حاجة لأبقى وحيداً كي أفكر فيما رأيت ، وأطالعه في خيالي . وقد تفرقت جماعتنا مؤقتاً في ذلك الوقت فنزل اثنان أو ثلاثة منها في الجدول الذي يقع أمامنا ، وذهب مدير الناحية إلى الخيمة التي في الوراء ، أما الآخرون فقد اتجه كل واحد منهم إلى ناحية ما ، فكان بعضـــهم يتوضـــأ ، ويصـــلي ، أما الطاهي فقد كان مشغولاً جدا بجوار الموقد ، وقد تحلق بضعة من شيوخ العرب أمام الخيمة المصنوعة من الشعر الأسود التي تقع في الوراء أبعد قليلاً ، وكانوا يتحدثون وهم يحتسون القهوة .

قضـيت سـاعة هادئة . ثم جاء بعد ذلك صـديق أو صـديقان من رفاقي . وبدأنا نتحدث مرة ثانية عن " وادي موســى " ، عن إحدى عجائب الدنيا هذه التي عرفت في أقدم العصور التاريخية باسم " البتراء " التي تعني الصخرة في اللغة اليونانية . وعندما فتحنا دليل " **به دكر** " ، لم نكن نعرف تاريخ أو اسم (**البتراء**) المشهور لدى سكانها، يحتمل أن أقدم قبورها يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد . وقد عرف أن اسم أقوام " ناباتائن " الذين جاءوا خلفاً لأقوام "**آدومين** " في هذه القلعة ، كان لأول مرة قبل ميلاد عيســى بثلاثمائة وإثنتى عشــرة ســنة ، أي في تلك الفترة التي أرســل فيها " آنتيغون " القائد " (**آته نه**) ثم (**ده متريوس**) من بعده من أجل الســيطرة على " البتراء " وقد حاقت بهم الهزيمة فيها ... إلخ لقد قرأنا تلك الأسطر السالفة من ذلك الدليل .

ولم نستطع أن نتعرف أيضاً على [الالبتراءء] التي تحفظ ماضيا مجهولا خاصا بها بين الظلال الكثيفة والقبور التي تعلو بعضـها بعضـاً ، وعشـنا فقط في مشـاهدها .

وقد كان التاريخ غائباً في هذا المكان، وكانت ثمة مجموعة من المخلوقات الخيالية تطوف بدلا منه . كان السكون يزداد كلما دنى المساء واقترب .

وبينما كانت الشمس تسقط نحو آلافاق الدخانية خلف الجبال المهيبة التي تقف متراصة منتظمة في مواجهتي ، صعدت حينئذ الهضبة التي أمامي حين أصفر لونها . وبعد وقت قليل ، كنت أبصر بعضها وقد تهاوى فوق بعضه ، تيجان الذهب الأحمر التي فوق الرؤوس العظيمة للصخور الضخمة المحفوظة في سكون وقور عتيق، على قامتها العالية التي تدثرت بألوان الصدأ للأزمنة الغابرة التي تحصى حين اندفعت على بعضها البعض . وكان الفضاء الواسع المفتوح نحو آلافاق خلفها والذي لا يمكن رؤية ما بداخله ، متوارياً في خلف الضباب والسخام الأزرق و الأحمر الوردي ، والدخان المتباين الألوان ، والأغطية الرقيقة والحرير ذي الخيوط الذهبية للعصور المجهولة التي تمطر فوقه الأساطير وردية اللون . وكأن جميع الموجودات التاريخية المتوارية في الأماكن المجهولة من القصور والمعابد التي مررنا بها في ذلك اليوم ، قد خرجت في أفواج متعددة ، وكانت تقدم طقساً عظيماً من طقوس المدينة . غير أنها كانت تستطيع أن تختبئ عن أنظارنا خلف الجبال ، وداخل الألوان والأشعة وفي الأماكن البعيدة . وقد تحول هذا الموقف بعد أن استمر طويلاً ، وصرنا في وقت انطفأت فيه التيجان المتشكلة من العقيق الأحمر مع مشهد الأحجار المظلمة ، وقد أخذت لوناً بنفسجياً داكنا يزداد قتامة كلما نزل إلى الحواف ثم ظهرت بعد ذلك الخطوط السوداء والظلمات المتباينة الألوان .

لقد غلبت كل الظلال البريق الذي في آلافق ، وبدأت هذه المرة مجموعة من الألوان المظلمة تجثم عليها بدلاً من الضباب ذي اللون الأزرق – الوردي . وبدأت تلك الجبال العظيمة تتوارى تدريجياً مع أول خيط لليل، إنه سكون تام يسيطر على كل شيء .

يوم الجمعة – الموافق الرابع من مايو :

كان صباحاً براقاً ، بارداً إلى حد ما . وكانت الأصوات تسمع حول الخيمة ، وأصداء صهيل الخيل في الوراء قليلاً ...

ولأننا لم نتخذ قراراً على الإطلاق منذ ليلة أمس بخصـــوص اليوم ، فقد كان كل فرد فينا يتصــف بالكســل وعدم الإكتراث ، كل واحد منا كان حرا لأنه كان يوم الراحة الأسبوعية :.. كنت أنا أيضـاً أشـعر بهذا الحال بسـبب قوة طبيعية ، وأقول : سـأكتب قليلاً ثم أخرج إلى التنزه وإن كان ثمة شـــيء ما يجب القيام به فلنفكر فيه فيما بعد . غير أن المناظر الجميلة لـــــــ " البتراء " كانت لا تزال أمام عيني ، ولا تزال تداعبني مهيمنة على خيالي ، وتقول " أنا الوحيدة في الدنيا ، أبصرني في كل وقت "

وحتى تظهر نضارة جديدة لهذا الصباح

- ماذا سنفعل اليوم ، وإلى أين سنذهب ؟
- اليوم ، أجل ، هل اليوم يا سـيدي ؟ ... اليوم ... واضـح تماماً ، لن نفعل شـيئاً على الإطلاق ، أليس كذلك ؟

أردت –عندما كنت أدخل وادي موسى– أن أرى تلك الحدائق البسيطة والمتواضعة لتلك القرية الصـــغيرة حين كنت أتجول قليلاً في محيطها الهادىء ورياضـــها ، والتي مررت من أسـفل أغصـان أشـجارها التي تمتد من طرفي طرقها الصـغيرة حانيا ظهري حتى لا يسـقط طربوشـي . لقد أفصـحت عن رغبتي هذه ، وعلى الفور نالت القبول . وأعدت الجياد بعد مدة زمنية قصـــيرة ، وبدأ كل من الطاهي والعمال طريق المســـير. وسرنا لنكون ضيوفاً على إحدى الرياض الموحشة في قرية وادي موسى .

ونزلنا مرة ثانية إلى الوادي الذي يتوســـط الحدائق المغطاة بالحجب الخضـــراء الأسطح المتقابلة لحافتي الجبلين ، وصعدنا أعلى السفح المقابل ، وتجولنا قليلاً ، وبعد أن نزلنا عن الخيل ، وحتى قفزنا أعلى إحدى الصـخور سـرنا أسـفل أشـجار الرمان والمشمش ، وشتلات التين الصغيرة والقصيرة و أفرعها المتشعبة والمنخفضة .

فوجدنا السـجادات قد بسـطت على جانبي الماء وتحت أشـجار الرمان الوارفة الظلال على مصدر النبع الصغير الشفاف وكأنه البلور. لا يمكن أن يكون ثمة مكان ما ساكن ، ومجهول ، ويجلب راحة البال أكثر من هذا المكان !...

إنه جدول هادىء يشـبه في هدوئه نوم الطفل ، وشـتلات بلا حراك تشـبه شـابا حائراً ، إنها الطبيعة التي تعرض حسنها في كل مرة بشكل متغير وجديد ، حين ترتدي كل ربيع ردائها الأخضـــر المطرز بالأزهار التي تكون بنفس اللون ، والجميلة دائماً ،

والساقية المتواضعة في سلسلة واحدة من التحولات في حال الأرض والموج والسحاب والزهر والمروج والجبل والصحراء والبحر مع الحفاظ على حسنها بشكل دائم ، هذه الطبيعة التي هي أم كل هؤلاء بأزهارها التي تشبه طفلة استغرقت في اللعب بعرائسها ولعبها ودماها ، وكانت أنيس أرواح عائلتنا في هذا المكان .

غير أن مشاعري أيضاً كانت تذهب إلى تلك الأعماق المظلمة السابقة ، إلى قوم بني إسرائيل وسيدنا موسى وأقوام " نابا ته ئن " الذين كانوا قبل التاريخ وكانت دائما تجد المتعة في الفرار نحو تلك آلافاق غير المتناهية . وحين كنت قادماً إلى وادي موسى ، في فترة ما ، تراءت لي " عين موسى " التي نسيت ذكرها قبل ذلك رغم أننا كنا توقفنا أمامها : حيث أروني إياها عندما كنا ننزل من الجبل في ذلك اليوم ، وبالوادي عين ماء عذب وبراق ونظيف– ينبع من تحت إحدى الشجرتين اللتين كانتا أمامنا – تسمى " عين موسى " فتوقفنا هنالك بضع دقائق ، وشربنا نحن أيضاً الماء بعد أن أوردنا خيلنا . ففكرت حينئذ، وقلت لنفسي وأنا أتصور طيفا طيبا : هل هذا هو المكان الذي سار فيه سيدنا موسى بعد أن ترك دياره بعد تعديه بالضرب على أحد أقباط مصر الذي تعدى بالضرب على أحد أبناء قومه، وهرع في هذا المكان لنجدة الأهالي الذين حرموا من المياه بسبب سقوط حجر كبير عند نبع المياه، فقام هو بقوته الخارقة برفع هذا الحجر وفتح للأهالي النبع من جديد ؟!..

ذهبت ابنتا سيدنا **شعيب**– الذي بلغ من العمر عتيا –إلى المنزل تحكيان لوالدهما عن هذا البطل الذي ملأ لهما الجرار، وأنقذ القرية كلها، فأشار عليهما سيدنا شعيب بأن يأتيا به إليه، فأجاب الدعوة بلهفة الغريب الهارب . وسار الشاب نحو القرية التي ربما كانوا هم سكان هذه الأطلال في ذلك الزمان ، تلك التي رأيتها عند الجبل المقابل .

حسن كانتا تسيران غير ان موسى لما رأى أن الرياح التي هبت من خلفهما قد أظهرت قامتيهما ، حيث لفت جسديهما بملابسهما المكونة من مجرد قميص ، ورأي أن هذا لا يتفق مع ما يستلزمه نظر الرجولة من عفة، طلب إلى مرشدتيه أن تبقيا خلفه ، وأن تريانه الطريق . وعندما وصلوا إلى شعيب ، استحق **موسى** – الذي نال دون أن يعلم على الإطلاق – في ذلك اليوم وصف الحق له بأنه القوي الأمين ، بكل

صراحته وصدقه اعترف أنه قتل رجلا ما ، فصان صاحب المنزل سره ولم يتراجع عن استقباله ، بل واسترعاه غنمه أولاً، ثم صاهره .

كنت أجد كل هذه المشاهد وقد حضرت في ذهني بينما كنا نغادر " **عين موسى** " يا لجمال العصور التاريخية البعيدة عنا دون أن تجرح الأحاسيس الوطنية.

أليس في المطالعة الموضـــوعية لحقائقهم وخرافاتهم ، الآم قومية ، وجروح لا يمكن شفاؤها ، وندم لا يمكن نسيانه ، ولعنات دائمة ، وأشواق ملتهبة نحو نجاحات الماضي ....

كانت شجرة الرمان الكريمة ، تحفظنا بأغصانها الخضراء من تأثير حرارة الشمس التي تلتهب تدريجياً . وقد وضـــع أحد رفاقي بضـــع من الأزهار القرمزية اللون البراقة لتلك الشجرة داخل النارجيلة التي حملها حتى ذلك الموضع . وقد قضيت بضع ساعات للذكرى في هذا المكان الذي يميل إلى الســكوت أكثر من التكلم ، وإلى العدم الهادىء أكثر من الوجود الصاخب .

وبعد أن تناولنا الطعام استرخى بعضنا أسفل الشجرة ، واستغرق في نوم قصير أثناء النهار . كانت الأشجار ، وأغصانها الكثيرة ، ظريفة ومزينة حقاً بقاماتها الجميلة وكانت الأراضـي كلها مغطاة بالمروج ،غير أنه كان ثمة وطأة غريبة وخلو من الهواء في وديان هذه الأقاليم الحارة التي فصـــلت بحواجز قريبة من الصـــحراء الجرداء التي تشتعل تحت حرارة الشمس الشديدة ، وكانت الريح التي تداعب الإنسان من وجهه حتى روحه والنسمات الباردة النشطة– التي تليق بالروح والتي تكون في شهر مايو في البلاد المعتدلة ، وفي الأيام الممتعة اللطيفة الخاصة باستانبول على سبيل المثال في ذلك الشهر – تأتي إلى هذه الأماكن متهالكة في غير حالتها الطبيعية .

مررنا من داخل القرية حين كنا نعود إلى خيامنا قرب الظهر .

وقد أثرت في تأثيراً قوياً هذه المرة– لســبب ما– تلك المشـــاهد الخاصـــة بالحياة البدائية . إن المنازل التي لم تكن ذات نوافذ تفتح على مكان ما وكانت أبوابها كالمغارات مجوفة ، ومســـاكن البشـــر المســـاكين التي تذكر بالقبور الخالية من الهواء داخل الجدران الحجرية غير المنتظمة الشكل ،كانت بمثابة أوكار سيئة للغاية . وكأن ثمة مجموعة من المخلوقات الصـــامتة عديمة الأحاســـيس تجلس عند حواف الســـقف

المنخفضـــة وتتحدث تحت الجدران . وكان الشـباب والأطفال ينقلون حصـــاد الشـعير والقمح بواســـطة الحمير بيد أنهم جميعاً كانوا فقراء تقريباً . إن حال أهالي قرية تعيش على ذلك النحو داخل خزانة تاريخية أثرية أمر جدير بالانتباه ، لأنه في هذا المكان قد عاش أثرى الرجال ،و ما كانوا ليصـبحوا على هذا النحو ، بل كانت سـترتفع من داخل كل حديقة مآثر العمران والعمل ، والثقافة و مســـاكن الســـعادة والراحة بدلاً من تلك الفجوات المظلمة التي حسـبوها بيوتاً وحينئذ سـوف تغرد طيور أكثر فوق الأشـجار ، ولن تسـتطيع الأغصـان أن تمنع ثمارها ، وسـوف تمتليء الحظائر بالخراف ، وسـوف ينتج النحل العسـل في الأودية التي تفتحت فيها الأزهار ، وكانت الخيل سـتصـهل في الجبال ...

ويقول التاريخ ..... أصـبحت المدينة في ظل الموقع الحصـين الذي تصـدى لتجاوزات رجال البدو ، مستودعاً مناسبا لقوافل " **ناباته ئن** " التي طافت بين طرق كل من مصـــر ، والبحر الأحمر ، وغزة ودمشـــق ، وتدمر . وكان " **آرتاس الأول** " أول أمير للنبط ذكره التاريخ . وكانت سلطته تصل حتى الممالك الواقعة شرق نهر " شريعة " في عصر [**ماقابه**] الأول ، إلا أنه نظراً لأن إمبراطورية كل من " **بطليموس** " وسه لوسـيد " قد تعرضـتا للانحطاط ، فقد بلغت حدود إمبراطوريته حتى دمشـق قرب عام 585 ميلادية حين بدأت تتقدم بسرعة في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، ولقد تأصلت في بلاد الـــ " ناباته ئن " هذه التأثيرات اليونانية القديمة وفقاً للقب " فيله له ن " الذي لقب به حكامهم والذي يعنى " صـديق الرومان " ، وما تشـير إليه بقايا المعابد والمقابر التي تبرز الطراز اليوناني القديم . وقد حدث أول اتصـــال لهؤلاء بالرومان في عهد نفس الحاكم ، ثم اضـطروا في عصـر كل من " **أره تاس** " " **وبومبه ي** " وما بعدهما إلى دفع الخراج إلى الرومان.

ولقد عاون أقوام " ناباته ئن " الرومان تحت وطأة القوة في بعض المرات ، غير أنهم ظلوا أحراراً أقوياء الشـكيمة . حتى إنهم اسـتولوا على دمشـق في عهد " **آره تاس الرابع** " وفي العام السـادس والمائة الميلادي دخلت جميع البلاد و " البتراء " أي قطاع " البتراء " الواقع في البلاد العربية إلى دركة كونها إحدى ولايات إمبراطور روما.

وقد أنشأ [**ترايان**] طريقاً عظيماً يربط سوريا بالبحر الأحمر . وعندما قسمت هذه الأيالة فيما بعده بوقت كبير، أصـــبحت منطقة " البتراء " عام 256 ميلادية ولاية مستقلة تحمل اسم [**بالستيناته رتيا**] أو [**بالتبناسلوتاريس**] . وقد بلغت " البتراء " حسـبما تشـير إليه المباني والآثار الرومانية الباقية حتى اليوم ، أعلى درجات العمران المزدهر في عهد حكم الرومان ، وبدأت " البتراء " عصـــر الانحطاط بســـبب قيام إمبراطوريتي **إيران** و **تدمر** الحديثتين في أواســط القرن الثالث الميلادي ، وبصـــفة خاصــة بسـبب نجاح إيران في تحويل تجارتها إلى مخرج نهر الفرات وخليج البصـرة . وبعد استيلاء العرب على هذه المناطق أهمل ذكر اسم " البتراء "

وأنشـأ الصـليبيون حين ظنوا أن جبل هارون" القريب إلى البتراء هو جبل " طور سيناء " قلاعهم فوق قمة الجبل المقدس . ومنذ ذلك الوقت ، طوى النسيان هذه المدينة ، وظلت مهملة حتى اكتشف الرحالة أطلالها وخراباتها في القرن التاسع الميلادي .

***

وصـلنا مسـتقرنا . ونظراً لأننا كنا بين جبال وادي موسـى وخراباته فقد كنت أرى كل شيء ساكنا وذابلا. وعندما ذهبت إلى النبع الصغير ، شربت منه ربما لأخر مرة . ومن يدري ، كم عصر آخر سوف يتدفق النبع على ذلك النحو ، ربما يسيل يوما ما من الميازب المرمرية ، ويجرى منبتا الورود وأزهار البنفســج ، غير أنني بعد ذلك ، على أغلب احتمال ، سـوف أرحل في هدوء عن الدنيا بينما أكون قد تجاوزت ربع قرن آخر ... ورغم هذا كله كنت استمتع بنظرات بالغة النشوة ، من التأمل في هذا الوجود الأكثر بقاءا مني .

وعندما تبدت أول قســمات الليل ، جمعنا شــملنا ، وقررنا مغادرة وادي موســى صباح غد ، واصدرنا التعليمات بذلك .

وغاص كل منا قي أحلامه ، بينما كانت السـاعة الثانية ليلاً ، في خضـم سـكون ليلة صماء غير مبالية تداعب الروح مع نجومها القليلة .

يوم السبت – الموافق الخامس من مايو :

كان صـــباحاً متباين الألوان . وكانت الماعز ترعى في الأودية المقابلة ، وكانت الجهات حولنا شـديدة الخضــرة ، وكان الوادي لا يزال مع مروجه ومياهه الهادئة بكل سكونه وراحته . وكان بطء الحياة الذي يحكم الطبيعة واضحاً في كل شيء !

نزلنا أسفل شـجرة بلوط عظيمة جداً . وكانت البيئة من حولنا تبرز إقليما جافاً ، يمتلأ بأحجار الحصـاء وكانت الأرض مغطاة بالأعشـاب من نوع الزعتر أو المريمية . وأخذ ضـابط من أصـدقائي البندقية والطلقات من جندي من جنود الدرك وذهب صـوب الهضـبة ليبحث عن صـيد . وعاد بعد أن غاب أكثر من نصـف سـاعة في الغابة . وقلت إنه لم يستطع العثور على أي شيء لأنني لم أسمع صوت البندقية على الإطلاق فقال مجيباً : كان ثمة رغبة أخرى أكثر من الصـــيد ، فقد أنشـــدت العديد من أغاني الروملى بلدي بينما ظللت بمفردي في قمة تلك الغابة الجميلة ، وجددت العديد من ذكرياتي . فمنذ زمن لم أر غابة جميلة .

وحيث بقيت لنا ساعتان حتى نبلغ ناحية " **شوبك** " فقد سرنا إليها وقد أجلنا طعام الغذاء . كانت حرارة الوادي شـــديدة التأثير . وبعد أن ظللنا مدة أخرى في الغابة التي تقل أشـــجارها تدريجياً ارتقينا الهضـــاب العالية العارية . وكان على مرمى البصـــر هضاب تمتد نحو الآفاق .

وبعد أن نزلنا عن هذه الهضاب ، وصلنا شاطئ مجرى مائي عظيـــم براق بجوار [**شـــوبك**] حين كنا نتجول بحثا عن مخيم بعيد عن الأماكن الصـــخرية . وقد أقمنا خيامنا على البســتان الذي كان يحيط بمصــدر الماء . وكانوا يعدون القهوة أمام خيمة عربية من الشــعر الأســود ، كانت في الوراء قليلاً . وكانت الفرســة الســوداء ترضــع صــغيرها الأصــيل الذي ولد قبل يومين وله نفس اللون ، وكانت تحمي الصــغير الذي يرغب في المشي ، فتمايلا فوق المروج ،وهي تحافظ عليه من كل شيء ، بدقة خاصة بالأمومة ونوع عجيب من المحافظة ، وتصـهل أحيانا وهي تنظر إليه فحسب . فسألت صاحبها عن جنسها . فقال وهو يظهر أسنانه الناصعة البياض إنها [كحيل] فحسب وعن طريق هذه الكلمة فهمت كل المزايا . فقد كانت المهرة الصـغيرة أو الأميرة الوديعة تحتل مكانة هامة هناك !. كم كان الينبوع جميلاً .

إمتطينا جيادنا لكي نرى المنطقة . واقتفينا أثر الجدول الشـــفاف الذي كون ينبوع المـاء . وبعد أن توجهنـا إلى الربى مدة قصـــيرة ونحن نتجول بين الأطلال ، نزلنـا المنحدر الذي كان أمامنا لنقترب من جدران القلعة التي فوق قمة جبل صـغير ، شـديد الانحدار ، فصــل عما حوله تماما بالأودية المنخفضــة ودخلنا من الباب الوحيد للقلعة عن طريق المرور من الـدرجـات غير المنتظمـة وكـأنهـا ســـلالم نحتت وحفرت من الأحجار مكونة خطوطاً متعرجة جهة اليمن وجهة اليســار . ووصــلنا إلى القرية التي تظهر منازل دون نوافذ أو مخازن مظلمة أو مقابر .

وكان وســـط المنطقة منزلاً ذا طابقين وســـلم خارجي ، لا نظير له في القرية . وكانت المدرســة الابتدائية مخزن قلعة ذا حوائط غليظة . وكان هناك حوالي أربعين أو خمسين من التلاميذ الأذكياء الفصـحاء يقرءون جالسين على الأرض وأمام الصـناديق الصـغيرة فقلت للمعلم أليس من المفترض وجود صـفين من المقاعد ؟ أي حال هذا أيها الأستاذ ؟ فأجاب قائلا أن للمدرسة مصروفات تبلغ مائة وسبعين قرشاً في العام ، و قد قطعوا النقود هذه الســنة عندما طلبنا صــفوفاً . ولم نســتطع نحن أن نجلبها " ، ولم يســتطع أن يمنع نفســه من أن يقول لي وهو ينظر إلى وجهي بامعان . " ادخر أنت أيضاً مائة وسبعين قرشاً !:

كان طقس القرية باردا للغاية ، وكان عاصـــف جداً في ذلك اليوم وكانت الزخارف البارزة التي على جبهات المدرســة تذكر اســم " الملك منصــور الأخير " ، وكانت على ما أتذكر الآن تبرز تاريخ [697] . وكان في القســم الأعلى من القلعة نقش آخر بالعربية يطوق السطح بادئا بالبسملة أيضاً ، غير أنني لم أستطع قراءته . وكان النظر الذي يتوجه صوب الجبال من إحدى جهات هذه الهضبة شديدة الانحدار يجد الأماكن المشـــجرة الكثيفة في الوادي ، والغابات الزمردية اللون ذات الأشـــجار المثمرة .

وفي الوقت الذي وصـلنا فيه إلى جوار الماء عند خيامنا حين عدنا جثمت ظلال الماء على الأودية وأصفر لون اليوم وحل أزرق داكن ومعتم على الصخور الرصاصية اللون والمروج الخضـــراء يذكر بلون الحمام البري . وقد تناولنا طعامنا حين مكثنا ضيوفاً في هذا المساء على الوديان والجبال ، تلك الجبال التي تبرز حزن المساء حين

تحوله إلى مناظر أكثر تأثيراً من خلال مشـــاعر الوحدة الحقيقية . وقد أذن صـــوت حزين بقدر ضعفه في مكان بعيد ، وأديت الصلاة ، وكان واضحاً من حركات بعضهم من بعيد أنهم احتسوا القهوة بينما كانوا يلتقون حول مصباح صغير أمام الخيام .

ولم يبق صـــوت على الإطلاق بعد نصـــف ســـاعة . وبدأ الليل يخيم مبكراً ، واستغرقنا في نوم قروي كامل انتهى في الصباح الباكر .....

يوم الأحد الموافق السادس من مايو :

كان الصباح قد طلع حديثاً ، وكانت الساعة السادسة من الزوال .

فتحت باب الخيمة على الخادم . وكان أول زائر قادم ، يتمثل في مهر أســـمر اللون صغير جداً . فنظر إلى الداخل بعدم اكتراث طفولي . ربما كان سيلهو قليلاً بهذه الأشياء غير أن صهيل أمه الحنون رده إلى الوراء في الحال ، فرفع رأسه ونصب أذنيه وذهب مولياً .

خرجت بعد مكث في الخيمة لمدة ، وكان الطاهى يعمل بنشـاطه المعتاد ، ويعد موقد القهوة ، وكانت الحيوانات تنتشـــر ، وقد قضـــيت وقتاً قليلاً في الخيمة التي في الخلف والتي يجتمع فيها رفاقي.

إن المنظر الذي يدور أمام عيني اليوم يدعو إلى الحزن ، لقد كانت زيارتي إلى المدرســـة بالأمس تمثل كابوســـا مقلقا مزعجا ؛ بســـبب خلوها من النوافذ والزجاج ، وأرضها الجافة اليابسة ، والأدراج المحطمة التي صنعت مقاعدها من صناديق الفحم . وعند الخروج خارج أبواب اســتانبول ، فلا شــك أن هذه الغرفة الرطبة التي لم ترقنا – لأنها تخالف قواعد الحفاظ على الصـحة في وجود هذه التفاصـيل التي لا يمكن رؤيتها كثيراً بالنســـبة لعقولنا [القاصـــرة والتي غالباً ما تكون غير مكترثة بالأمور – كانت تحتاج إلى المائة وســبعين قرشــاً الصــغيرة جداً . آه للأســتاذ المنتمي لأرضــروم ، ولتلاميذه النابهين .

قضينا ساعات في حيرة ، ودون عمل . وقد حل وقت الظهر وبعد تناول الطعام حان وقت الرحيل ، ولأن جمعنا انقسـم إلى قسـمين للمرة الأخيرة ها هنا ، فقد بقيت أنا مع أحد أصــدقائي واثنين من قوة الدرك . أما الآخرون فســوف يعودون إلى [معان]

عن طريق وادي موســـى أيضـــاً ، وقد توجهنا نحن إلى محطة **عنيزة** " التي تبعد عن شوبك مسافة أربع ساعات .

خرجنا إلى طريقنا بعد الظهر وقد طوفنا مدة في الهضــاب ، ثم دخلنا صــحراء تمتد جهة الشرق عقب ابتعادها عن أطراف ناحية (**شوبك)** .

إنه مكان فضـاء يتجه نحو آلافق ، بحر من الرمال الصـفراء ذات اللون الواحد حيث العديد من الروائح الطيبة التي تغطى هذا المكان وتموج ألوانه فجوات وحفر صـغيرة تجدها في كل خطوة مع طاقات الزهور المتناثرة التي تشبه شـجيرات المروج ، ليس هناك إنســان ولا حيوان ، ولو حتى أثر قدم ، ولا طائر .... ليس ثمة شــيئ من ذلك على الإطلاق . وكان يبدو أحياناً الفرار المفاجئ للخيوط الدقيقة التي بلون الرمال ، غير أنه ثمة نوع من المخلوقات كان لها في ذلك اليوم لون كلون البطاطس ونقاط حمراء متعددة ظهرت أمام عيني . كان له لباس جميل وبقع حمراء .

وكأن الطريق كان يمتد كلما مشــينا ولم تكن حرارة الشــمس الزائدة– التي تعقب الظهر دائماً – تؤثر إلى ذلك الحد بيد أن الطريق كان مزعجاً ، والمنظر كان عارياً جداً وكنا سنصل المحطة حين ننتقل إلى الطرف الآخر من الهضبة المواجهة لنا والتي تمتلئ حوافها بالأحجار السوداء والسمراء اللون .

لم نكن – نحن الصـديقين – نتحدث قط . وكانت العيون تتطلع إلى الأمام دائماً ولم نكن نرمي إلى شيء سوى أن نقطع المسافة بخطوات منتظمة ومكثفة إلى حد ما . وذات مرة جاءت من أمامنا أصوات تشبه الهمس .

وقد استطعت أن أرى الجزء الرفيع فحسب من ذيل ثعبان عظيم حين كان ينساب من حجر كبير إذ كان يمر على الأرض بسرعة البرق .

وقبل الغروب بقليل ، رأينا المحطة حين كنا نطوف بجانب الهضـــبة ذات الحواف الســوداء اللون . وكان ما وراءها أيضــاً عديم اللون ، بل كان صــحراء نظيفة ، ربما كانت [بادية الشــام] التي تمتد إلى صــحارى البصــرة المســماة [**الزبير**] والتي تبلغ سواحل نهر الفرات بعد المسير لأسابيع . إنه بحر محرق ، وجاف !.

بدت المحطة صــغيرة جداً في عيني ، نزلنا عن خيلنا في مكان واســع يشــبه الساحة قد ألقيت فيها أشياء مثل الشجر والحديد . وكان ثمة عشرة جنود جلسوا في

ناحية يتسامرون . وجدنا الموظف ، ودخلنا حجرة التلغراف . وكان المكان ضيقاً للغاية . وكان به منضـــده التلغراف ، وأريكة ومقعدان ، وموقد غاز ، وإناء ومقلاة ومجموعة القهوة ، وصندوق وحقيبة ، وجرة ماء ، ثم آلة موسيقية يدوية ... إلخ كلها كانت داخل الحجرة . وكانت الحجرات الأخرى الخاصـة بكتيبة حراسـة خط السـكة الحديدية وطاقم كتيبة العمليات ومساعديهم من رتبة عريف .

وكان ثمة مطبخ وفرن في الوراء.

حل المســـاء ، وخيم على الصـــحراء ظلام متباين الألوان . كنت أتجول على طول الخط ، وكان الخادم يجهز الطعام وأراد عســـاكر قوة الدرك أن يعودوا ليلاً حين أخذوا حيواناتنا .

كم كان الموظف رجلاً مؤدباً ولطيفاً . وبعد أن تناولنا الطعام ، وضـــع أمامي مجلداً ضخماً للغاية يحتوي على مجموعة من المجلات مثل مجلتي [محيط] و [الكتاب المصور] ، غير أن أهم مسألة ، كانت القطار الذي سيصل في هذه الساعات من الليل من وســـط [**معان**] . ولأننا كنا نملك بطاقات للركوب فقد ركبنا قطار كل الأشـــياء الذي يمر ليلاً ، كنا ننتظر بشـــدة البرقية التي ســـوف تنهي الأمنية في ألا تقضـي الليل في هذا المكان الضـيق ، وأن نصـل في الصـباح إلى ذلك الموضـع الذي نقصـــده ، فوصـــلت البرقية في وقت متأخر : لقد أخبروا أن القطار ســـوف يمر عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل . ولا زال أمامنا ست أو سبع ساعات ، ولقد سررت لتأكيد الخبر دون أن أفكر في مدة الانتظار التي سوف تمر دون نوم .

ذهبت إلى الخارج لقضـاء الوقت ، وكانت رياح الصـحراء الباردة تصـنع صـوتا غير موسيقي ، ولكن كانت الصحراء جميلة .

وقد كانت تواجه بنفس النظرة غير المكترثة السماء بكل سكونها عظمتها . وكان الجنود ينامون وقد أغلقوا أبوابهم .. ولم يكن ثمة ذي روح غير المناوب الذي يدور ويلف وقد علقه حربته ، في الساحة الصغيرة التي بين المطبخ والحجرات .

وصـــل القطار في ســـاعته المحددة . فخلدنا إلى النوم حين لجأنا إلى إحدى عربات الأمتعة .

وبينما كنا نذهب صـــوب قصـــبة [**الكرك**] ونحن ننتظر مرة ثانية الخيل من محطـــة [**قطرانه**] آخر نقطة في رحلتنا في الصباح الباكر ، كان القطار الذي نزلنا منه يصـــغر تدريجياً كلما أتجه نحو آلافق مخلفاً نوعاً لطيفاً من التضـــاد بســـبب لونه الأسود ، في وسط الصحراء البيضاء ، بياضاً ضارباً إلى اللون الأصفر.

يونيو 1328